

مؤمن آل فرعون
ودروس فى الدعوة

تأليف

د/ محمود محمد محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

مؤمن آل فرعون
ودروس في الدعوة

تأليف

د/ محمود محمد محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

سيرة ذاتية

د. محمود محمد محمد عمارة

- من مواليد «سلامون» مركز الشهداء. منوفية عام ١٩٢٩.
- حاصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٦.
- حاصل تخصص التدريس من كلية اللغة العربية عام ١٩٥٧.
- عين مدرسا فى نفس العام بمعهد أسيوط الدينى - ثم معهد دسوق - معهد منوف - ثم أعير للجامعة الإسلامية بليبيا من سنة١٩٦٢-١٩٦٦م وعاد إلى معهد بنى مزاز ثم معهد فتيات المعادى ثم منوف.
- حصل على الماجستير فى الدعوة ١٩٧٠.
- حصل على الدكتوراه فى الدعوة ١٩٧٥
- عمل مدرسا بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة وأستاذا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- كان عضوا باللجنة المركزية وناقش الرئيس الراحل أنور السادات - أثناء اشتراكه فى وضع دستور مصر - فى ضرورة أن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ووافق على اقتراحه.
- يكتب فى الصحف والمجلات منذ أن كان طالبا بالثانوى.
- اشترك فى بعض المؤتمرات الإسلامية خارج مصر.

كتب المؤلف

كتب مطبوعة

١ ـ تربية الأولاد فى الإسلام.
٢ ـ نوح عليه السلام.
٣ ـ نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية.
٤ ـ صفحات من تاريخ المرأة المسلمة.
٥ ـ اليهود فى الكتب المقدسة.
٦ـ الخطابة فى موكب الدعوة.
٧ ـ شبابنا بين العلم الناقص والعلم الجامد.
٨ ـ عزة المؤمن.
٩ ـ من فقه عمر.
١٠ ـ تأملات فى السيرة.
١١ ـ من الذى يغير المنكر وكيف.
١٢ ـ فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام.
١٣ـ مؤمن آل فرعون... ودروس فى الدعوة.
١٤ ـ نحو مجتمع بلا مشكلات.
١٥ـ نحو أسرة بلا مشكلات.
١٦ ـ أصول الدعوة من قصة إبراهيم عليه السلام.
١٧ ـ الحج بين الدوافع والمنافع.
١٨ ـ الهجرة والإعداد للمستقبل.
١٩ ـ سائح فى رياض القرآن.
٢٠ ـ من فقه الصيام.

كتب تحت الطبع

١ ـ الدعوة بين كيد الطغاة وحكمة الدعاء.
٢ ـ ثمرات من حدائق السنة.
٣ ـ فى رحاب السنة.
٤ ـ الإعلام الإسلامى فى مواجهة الإعلام المادى.
٥ ـ تقدمة التلاوة.
٦ ـ حماية العرض فى الإسلام.
٧ ـ تأملات فى غزوة تبوك.
٨ ـ فواتح فى أدب الصحبة.
٩ ـ من مجالس العلم.
١٠ ـ دروس تصلح بها النفوس من الدين والحياة.

تقــديم

كانت هذه الأفكار جزءا من كتابى:

«فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام»

لكن الذى حدث أن الإذاعة السعودية كلفتنى بإلقاء أحاديث تحت عنوان: المنهج الإسلامى فى الدعوة فعدت إلى قصة مؤمن آل فرعون مرة أخرى لأجعل منها أحاديث مذاعة.. فتغيرت كمًّا وكيفا.. وبعد أن كانت صفحات معدودات فى كتاب.. صارت كتابا مستقلا.. هو هذا الذى بين يديك الآن.

وعلى الله قصد السبيل.

د/ محمود محمد محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

من أسلحة الباطل فى مواجهة الحق

تمهيد:

يقول تعالى فى سورة غافر:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. [غافر: ٢٣ ـ ٢٨].

* أهمية القصة:

للقصة فى حياة الناس دورها المرموق فى أخذهم بالفضيلة.. والفرار بهم من الرذيلة.. بما تُلبِّى فيهم من أشواقهم إلى المعرفة.. وما تسوقه إليهم من صور تتراءى بين أيديهم كأنها حيةٌ تُرى. وعلى أرض الواقع.. فإذا هم يفتحون بصائرهم على نماذج تاريخية تخاطب فيهم العقل ليصحو.. والإرادة لتنشط.. ليمضوا على ذات الطريق.. إلى نفس الغاية..

وإذا كان ذلك أثر القصة بعامة.. فإن القصة القرآنية تَنفَرِدُ بخصائص تجعلها أقدر على الأخذ بزمام الناس إلى الحق.. بما تحمله من خصائصِ القرآن المجيد:

فالصدق لحمتها.. وسداها.

ثم هى جزء من القرآن المحفوظ.. فهى دائمةُ العطاء أبدا.. خالدةٌ خلودَ القرآن.. لا تخلق على كثرة الرد.. لا ينالها ما ينال نِتاجَ العقول من بوارِ

وسلال.. وبها تستعيد الأمة ذاكرتها المفقودة.. وتنشط ملكات الاستقبال فيها.. حين تتلقى واردات الهدى.. من عِبَرِ الماضى.. فتَتَأسّى بصور الإيمان.. ومواقفِ البطولة... تأسّياً تستعيد به مجدها الغابر.. فى وقت تناوش الإسلام فيه قوى عدوانيةٌ بصيرة بوسائل الكيد...الأمر الذى يجعل من دراسة القصة القرآنية رافدا من روافد القوة والعون على كشف الكيد.. ورد العدوان.

وقصة مؤمن آل فرعون إحدى هذه القصص الرائدة... والتى تلخِّص لك قضية الصراع بين الحق والباطل.. الباطلِ الذى يحاصره الحق بسلطان الحجة فإذا به يبذل فطرة الطغيان فيه.. وكما قال علماؤنا:

[يلجأ أهل الباطل.. إذا ارتفع صوت الحق فى وجوههم إلى سلاحِ الكذب. والخدعة - والعنف - من حيث إنهم لا يستطيعون الثبات على باطلهم. وقد كشف الله سواد ظلمته بنور الحق... والحكمة.. جاهلين أو متجاهلين أن قوة النور تُحلِّل كلَّ تمويه وتضليل.. ولهذا كانت الصراحة فى القول من آداب أهل الحق.. والختْلُ طريقَ المبطلين][1] أ.هـ.

ولابد قبل كشف اللثام عن دروس الدعوة فى قصة مؤمن آل فرعون من بيان صورة الحياة فى عصره.. تَمثُّلاً للظروف الصعبة التى حَمَل لواء الدعوة فيها.. وذلك ما تتكفل ببيانه الآيات التى نحن بصدأ التعليق عليها اليوم..

وقبل ذلك نتساءل: من هو مؤمن آل فرعون:

قال بعض المفسرين: كان قبطيا.

وقيل: إنه كان ابن عم فرعون.. إلى جانب أنه كان صاحب مشورته وسره.

وإذن.. فما هى حقيقة الأوضاع التى ألهبت مشاعر هذا المؤمن.. ثم حركت فى قلبه إرادة التغيير؟. ذلك ما تصوره الآيات الكريمة..

إن كون موسى - عليه السلام - رسولا.. حقيقةٌ مؤكَّدة... ﴿لقد

(١) الدعوة والدعاة للشيخ الزنكلونى.

أرسلنا..﴾ ورسالته حقيقةٌ. من لدن الخالق سبحانه كما يفيد ضمير العظمة فى﴿أرسلنا..﴾ فهى فى حماية مُنْزِلِها العظيم. والذى يصونها من الضياع.. مهما كان المتصدِّى لها.

ثم إن موسى عليه السلام يجيئكم وبين يديه معجزات.. لا معجزةٌ واحدة.. وهى ليست معقَّدة.. تكلِّف المدعوَّ مشقة اكتشاف دلالتها..بل هى آيات.. واضحات.. فى ذاتها.. تعلن عن نفسها.. كل آية هى أكبر من أختها..

بل لقد وصل تألقها إلى حدٍّ أنها صارت سلطانا يفرض جاذبيته على القلوب.. على نحوٍ كاشف عن وجه الحق لكل ذى بصر وبصيرة..

هكذا جاءهم موسى عليه السلام..

فماذا كان ردُّ الفعل هناك!

كان الغرورُ يلعب هناك برؤوس الكفر:

فرعون.. رأس الحربة..وسنده السياسى.. هامان.

ورأس المال في يد الشيطان.. قارون. والذى يمكن للباطل بثروته التى يشترى بها الضمائر والذمم.

ومتى تَمكَّن الغرور فى كيان إنسان..لم يُبقِ له عينا ترى.. ولا أنفا يشم.. ولا عقلا يفكر.. ولا قلبا يخشى ولا أعصابا تحس.

إن جمال الحق من حوله.. يتوهج.. ولكن كيف يعشو إلى ضوء ناره من فَقَدَ النور.. النور الذى يرى به وهو الإيمان؟!

ويبدو أن إحساس الطغاة بالضعف.. يحملهم على أن يضربوا وبقوة.. وأن يتهموا.. مفترين.

ثم يصبح الافتراء شوكا يلقى على دروب الدعاة.. لتبدأ رحلة المعاناة..

المعاناة مع فرعون ورجال مشورته.. الذين يميلون مع هواه.. ولا يسمعونه إلا ما يحب.. ولو كان فيه هلاكهم.

وهذا ما حدث بالفعل عندما حركهم الهوى ليردوا الحق الوافد بما حكته الآية الكريمة عنهم: **﴿فقالوا ساحر كذاب﴾**.

وهكذا أحسّ المؤمن بالبواعث.. فإذا هى حب الانتقام.. ثم رأى السلوك. فإذا هو التصفية الجسدية.. وقبْلها: الاتهام الخبيث بالكذب.. والسحر؟

ولقد كانت أنفس الجبارين تكذبهم من أعماقهم فى دعواهم.. فما أبعد الرسول عن تهمة الكذب.. وتهمة السحر.

والحقيقة: أن الكذابين يرمون الرسول بعلتهم.. لأن معنى صدقه فى دعواه أن ينهار بنيانهم على أدمغة أينعت وحان قطافها!

ونذكر هنا تنويها بالصدق وأهله ما روى: من أن رجلا قال للزهرى - رحمه الله-: كذبْت! فقال له:

لا أبالك.. أنا أكذب؟!! فوالله لو أن مناديا نزل من السماء فقال إن الله أحل الكذب.. ما كذبت!

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن يتقول أقبحُ القبح.. على أجمل الجمال.. ليزداد الجمالا جمالا.. ويبلغ القبح بتبجحه المحاق.. ثم يسقط فى لجة الظلام.

[من القول إلى الفعل]:

لكن حرقة الغيظ فى قلب فرعون لم تكن لتطفئها دعواه التى يَعْلَمُ أنها لن تصيب من الرسول مقتلا.. فقرر التصفية الجسدية ليُسكِت نباح الغيظ فى قلبه.. وذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾.

وهكذا كان اختيار فرعون قطعةً من عقله الذى يُصرّفه الهوى

وآفة العقل الهوَى فَمَنْ علا   على هـــوَى عقلـه فقد نجا

ومتى كان القتل.. وكانت الدماء سبيلا إلى القرار والاطمئنان؟!

وهل رَخُصَت الحياة إلى هذا الحد.. حتى يسمح فرعون لنفسه أن يُحيل الحياة مخاضة من الدماء تنفيسا عن غيظه المكتوم..

وبالإسلام من دين يحترم الحياة.. بل يصونها أن تنال..

وياخساسية القلب المسلم الذى يُدرك أنَّ زوال الدنيا أهون من قتل نفس بغير جُرم..

هذا القلب المسلم فى صدر ذلك الطبيب الذى كان يقسم أنه ما وصف لمريض.. مطلق مريض.. ما وصف له دواء مليّنًا إلا فكَّر قبل ذلك أيَّامًا.. وبعد ذلك أياما.. مع أن الدواء لم يكن سمًّا.. وإنما كان مجموعة أعشابٍ لا تضر إن لم تنفع!

ولكن القوة الغاشمة فى يد فرعون.. فشِلت أن تقتل الإيمان فى القلوب.. لأنه بعيد.. لا تطوله يداها.. فلجأت إلى العنف.. إلى قتل المؤمنين.. مركِّزةً على الأبناء وهم عدة المستقبل. وقوة الغد.

وأضعف الناس من يلجأ إلى العنف سبيلا إلى فرضِ إرادته أو فكرته.. وذلك بأن العنف «هدم».. والبناء أصعب.. لأنه صعود تقاوم به جاذبية الأرض..

ولئن تمكَّنت القوى العدوانية من القتل.. فسوف يترك الشهداء من بعدهم عقيدة الإيمان شاهدة بأن هناك ما هو أغلى من الحياة.. وعلى ذكراهم ستنبت ناشئة تمضى على نفس الطريق.. وعلى قدر تفنن الطغاة من الكفار فى حرب الإبادة.. يتفنن الإيمان فى فرض وجوده.. فإذا غاب من أفقٍ طلع من أفقٍ آخر! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ختاما للآية الكريمة: ﴿.. **وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾.

والحق تعالى يعاجل المعتدين بفشل خططهم وهم فى قمة الاعتداد بها.. ثم خطط الذين يحتطبون فى حيلهم على مدار التاريخ ليبقى الأمل مَعْلَمًا بارزا على طريق الدعاة: على حدائه يصبِرون.. وبنوره يمشون.

*****

قاعدة الانطلاق

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٦ ـ ٢٨].

عندما أَحَسَّ فرعون بأن قرار قتل الأبناء لن يَشفىَ غليله.. وأن نفْخَتَه تلك الكاذبة لن تهز صرحا ممردا مكين الأساس.. عندئذ أحس بأنه ضئيل أمام الحق.. فعبّر عن هذا الخواء النَّفْسى بمزيد من الضجيج والتهديد فى محاولة للإرهاب.. وأعلنها بأعصاب كأنما كان حشرها «البارد».

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ...﴾.

لقد وصل بالتهديد منتهاه حين هدد بقتل الرسول.. وبالوقاحة درجة التشبع لَّما قال: وليدع ربه.. ثم شارف بالادعاء واتهام الأبرياء غايته لما قال:

إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد!

وأى دين كان عليه فرعون سيُبَدّله موسى؟. وأى فساد متوقع من رجل جاء لينقذ الأمة من الإلحاد.. ومن الفساد.. معا؟!

وإذا لم تستح فاصنع ما شئت.. واتهم من شئت.. بما هم منه براء.. وما دمت ظالما.. فهذا منطق الظالمين.

ولكن الحق لا يترك الساحة خالية للوثنية الكافرة تتيه اختيالا.. أو تتلوّن احتيالا.. وها هو ذا الحق يمسك بخناق فرعون فيقول هنا:

هل كانت هناك قوة فى الأمة تمنع فرعون من تنفيذ أمرٍ ارتآه؟

بالطبع: لا.. فالكل يسارع فى هواه!

وإذن.. فلماذا يقول: ذرونى أقتل موسى.. وكان المتوقع أن يقتله.. وبلا استئذان؟!

على أى حال.. لقد كان ذلك أمارة ضعفه.. من حيث لم يتخذ القرار بالقتل وحده فشاور خاصته..

ولكن: ما هى مسوغات القتل؟

ونحاول تأمل مسوغات القتل...لندرك ما وراء السطور وهو: تحريض الناس على الرسول:

أولا: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾:

والعقيدة مهما كانت باطلة جزء من كيان الإنسان.. ومن طبعه أن يهب للدفاع عنها فى مواجهة من يريدها بسوء.

وثانيا: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾:

وكل نفس تحب الصلاح وتكره الفساد.. وإذن.. فقد أراد فرعون إيهام الناس بأن موسى ضد عقيدتهم.. ومصلحتهم معا..

ولقد اختلفت آراء المستشارين:

فرأىٌ يقول: يبقى موسى حيًا حتى لا يتحول بالقتل بطلا فى نظر الناس.

وجماعة تقول: ليبق موسى حيا.. لأنهم كانوا على دينه مسلمين..

وجماعة ثالثة ترى بقاءه.. ليُشغل فرعون به.. حتى تتمكن هذه الجماعة من تصريف شؤون الدولة.. ولا يتفرغ فرعون لها..

ومهما يكن من أمر.. فقد ظهر فرعون وهو أصغر فى نظر نفسه من أن ينفذ اقتراحه.. وها هو ذا يختلق المعاذير إرادة قتله إيهاما للناس بسداد رأيه.

وينتهى موقف المدعو.. ليبدأ دور الداعية فماذا فعل؟

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

وأنت واجد فى المنطق القويم من سمات الدعوة:

١ ـ لجوء الداعية ـ وفى مُدْلَهَمِّ الخطوب ـ إلى ربه تعالى.. غير معتمد على طاقاته البشرية.

٢ ـ وإيثارُ لفظ «الرب».. «ربى».. إيناس بوعده الكريم بالنصر..

وتلك هى البشارة..

وفى قوله: «ربكم» وعيد مقَنَّع حتى لا يثير حفيظة المدعو الذى أجرم فى حق من رباه سبحانه.. ويوشك أن يلقى جزاءه..

وتلك هى النذارة..

٣ ـ وكأنما يؤثر الداعية لفظ الرب.. لما فيه من أنس.. وتودد يخفف من حدة الموقف الملتهب.. مشيرا فى نفس الوقت إلى الدافع من وراء هذا العناد وهو: الكِبْر الذى يُزين لصاحبه أنه فوق الجميع.

٤ ـ ومن وراء هذا الكبر علته وهى: فقدان الإيمان بيوم الحساب..

وكيف يسوّل للملحد أن يضرب ضرب من لا يخشى العواقب..

أى أن الداعية على مستوى الموقف.. وإن كان فرداً:

فقد درس شخصية المدعو.. ثم حللها إلى عناصرها.. فنجح فى تشخيص العلة.. وبالتالى نجح فى وصف الدواء.. وهو إحالة القضية برمتها إلى الله تعالى.. ليحكم فيها..

﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

وماذا عن نتيجة اللجأ إلى الله تعالى؟ لقد استجاب سبحانه لرسوله فسخر للدعوة جنديا من قوم فرعون أنفسهم.. ولا يهز الشجرة إلا فرع منها. ويلاحظ أن السياق لم يصرح باسم المؤمن حتى لا ينصرف الذهن إلى داعية تتحدث عنه الآيات والناس يتفرجون. وكأنما يقال لأصحاب النبى ﷺ: هو رجل.. وأنتم رجال.. مؤمن وأنتم مؤمنون فلماذا لا تفعلون ما يفعل نصرة لنبيكم.. ما دمتم تملكون ما يملك من الرجولة والإيمان وإذ يزعم فرعون

نه يملك الحاضر بما يحوز من عدة وعدد.. فإنه لن يملك المستقبل..

ومالك الاثنين معا هو الله تعالى.. والذى ساق «الرجل المؤمن» ليخوض معركته السلمية.. وفى ساعة الصفر.. والقوم على وشك تنفيذ الاقتراح بقتل موسى ـ عليه السلام ـ: وذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

ومن خلال تصرف «الرجل المؤمن» تجد نفسك أمام داعية حصيف ينال باللين أضعاف ما ينال بالشدة.. وبالذكاء فوق ما ينال بالدهاء.

ويذكرنا بما قاله ابن رواحة رضى الله عنه:

إنى توسمت فيك الخير أعرفه   والله يعلم أنى ثابت البصر

إنه داعية يدخل المعركة السلمية بوعى عميق.. وتصرف دقيق لا يقطع خيط الرجاء أبدا... لأنه ينطلق من القاعدة الصلبة وهى: الإيمان بالله تعالى:

فحين.. يحاط به.. فليس وحده..

وحين ينجح.. فلا غرور..

وإذا فشل.. فلا يأس..

إن القائد الجالس خلف مكتبه الوسيم يخطط لأمته.. لا يجد عنتا فى اتخاذ القرار..

أما والمعركة قائمة.. والناس يصطلون بنارها وإيقاع الحدث أسرع من تدبير الإنسان.. هنا فقط.. تبدو حكمة القائد.. وحكمة الداعية أيضا.

فالجريمة بشعة.. والهوة واسعة.. وموت موسى ـ عليه السلام ـ قضاء على الدعوة التى جاء بها لإنقاذ أمته..

وتبدو آيات التدبير الإلهى الذى أيد موسى عليه السلام بهذا المؤمن.. فكان رزقا ساقه الله تعالى إليه:

فهو رجل.. والرجولة أجدر بتحمل مسؤولية المواقف الصعبة... ثم هو

مؤمن: والإيمان ضمان الثبات.. وكاشف الظلمات... ثم هو من آل فرعون..
وإذن:

أ - فهو أدرى بأسرار قومه.. ونقاطِ الضعف والقوةِ فيهم.

ب - وهو أحرص على هدايتهم.. بحمايتهم من الوقوع فى المحذور.

جـ - ورفقه بهم فى الخطاب نابع من هذه الصلة الرابطة..

فإذا رأى قَسْوَةَ البشر.. وصعوبة المنحدر.. استدعى كل ما لديه من صبر ورحمة يواجه بها الإعصار..

ومهما يكن التيار قويا.. كاسحا.. فإن الكلمة.. وإن كانت من حروف وحركات سوف تعمل وعلى المدى الطويل عملها.. وذات يوم سوف تسقط السنديانة الضخمة.. غير مأسوف عليها.

ولكن ما هو منهج المؤمن فى تغيير المنكر؟

لقد رأى الحياة من حوله تسير على حلٍّ شعرها.. ويكفى دليلا على ذلك:

أن الداعية المسلم: يُقتل.. والقتلة الحقيقيون يعيشون أحرارا!

وصعوبة المعادلة تتقاضى الداعية أن يكون على أوفى مراتب الحكمة فى مواجهة الموقف:

[ذلك بأن الحق ثقيل - كما يقولون - وقلما يكون الداعى إليه صديقا.. ولابد من مراعاة شعور من يُعرض عليهم كى لا يزداد إعراضهم عنه] أ.هـ.

ومن ثم تحرَّك الداعية وفى ذهنه تصورٌ واضح للموقف برمته:

١- فهو رجل واحد مُوحِّدَ.. يواجه أمة وثنية.

٢- ثم هو من آل فرعون.. فإيمانه يشكل ضربة للقوم موجعة.

٣- معنى فشله فى خطته ضياع الداعية.. والدعوة.. أى: ضياع أمة بأسرها..

من أجل ذلك وضع خطته على نحو يحقق مقصودها.. وطبق منهج يستهدف فى مجمله تجنب إثارة المدعو.. حتى لا يتصور الداعى صيادا.. وقبل أن يتحول بالإثارة غزالاً شاردا.. لا يلوى على شىء!

وذلك ما سنوضحه فى الحلقات القادمة إن شاء الله.

خطة الداعية

يقول الله تعالى في سورة غافر:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

لا يجمل بنا كدعاة أن تكون رغباتنا سرابا من الأماني. .وإلا، فما أكثرها. . ثم ما أعجزنا عن تحقيقها. . ولكن المطلوب منا: أن نجعل لرغباتنا ـ بالعمل والحكمة ـ: ريشا. . لتطير. . وأقداما. لتسير. .

إن الداعية الحق يعمل ما ينبغي. . لا ما يحب . فكثيرة هي أمانينا التي نود أن توافينا. . ولكنها تظل أحلاما هائمة، وبلا مأوى.

وإذن. . فلنفعل ما ينبغي. .ولو كان هناك في أعماق المحيط. . وهذا حقنا. . ولكن: كيف؟ تلك هي القضية

فلنتعلم السباحة والغوص ليمنحنا البحر من لدنه لؤلؤا. . ولحما طريا فإن الأسد الرابض. . لا يأكل!

وهذا مؤمن آل فرعون يعلمنا لنعمل. . ولكن على مقتضى الحكمة. . بنظر مستقيم. . وذوق سليم. . وإلا فإنّ فقدان الذوق السليم والنظر المستقيم يجعل من صاحب القضية فرسا بلا لجام. . وناقة بلا زمام. .

لقد انطلق المسلم إلى هدفه من هذه القواعد:

أ ـ ضرورة البلاغ.

ب ـ وفي سرية تامة.

جـ ـ وعدم الدخول في معارك مباشرة مع قومه. . وإنما إيقاظ العقل بدقة. . وهز الوجدان لينفعل بها. . وإنه ليمثل الفجر البازغ فهو

بالحكمة شعاع من النور.. يدخل.. حتى من أضيق الثقوب..

لقد كان رجلا.. وفى الرجولة حيوية واندفاع.. لكنها الرجولة المحروسة بالصبر والأناة.. كما أشار القرآن إلى ذلك عندما استعمل لفظ الرجولة فى مواطن تؤكِّد ذلك.. وذلك قوله تعالى:

﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى﴾. ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾. ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

إنها رجولة الهداية والتعليم.. لا رجوله التحطيم والتجريم. وصحيح أنه: فرد.. واحد.. وربما ـ لأنه محدود الإمكانات ـ ربما لا يستطيع أن يحرز فى معركته نصرا حاسما..

ولكن نصوع الحق فى موقفه وبقاء الدعوة حية فى شخصه. يُسمعُ صوتها يعتبر نجاحا يترك آثاره.. ولو على المدى الطويل.

يقول واحد من شيوخنا: [الرجل صاحب الرسالة يعيش لفكرته ويعيش فى فكرته فحياته فكرة مجسمة تتحرك بين الناس تحاول أبدا أن تعرض على الدنيا نفسها وأن تَغرِسَ فى حاضر الإنسانية جذورَها ليمتد على مر الأيام والليالى فروعا متشابكة تَظلِّل المستقبل وتَتَغلغل فيه.

ومن ثم تبدأ الدعوات والنهضات الكبرى برجل واحد هو فى بداية أمره أمة. أمة يتخيل حقيقتها فى نفسه، ويُحس ضرورتها فى دمه ويبشر بها فى كلامه، ويحمل أثقالها على كاهله.. ولا يزال يجمع الرجل إلى الرجل ويضم البيت إلى البيت ويرسَم المبدأ والوسيلة والهدف. وينفح من روحه فيمن حوله.

فإذا الأمة التى كان يتخيلها وَحْدَهُ قد أصبحت حقيقة واقعة تطلُع الشمس عليها. ويعترف الناس بها. ويسجل التاريخ قيامها. وهكذا بلَّغ النبيون رسالات ربهم وصَنَعُوا بأيديهم الأمم التى انتقلت بها الإنسانية من طور إلى طور] أهـ.

وهكذا كان مؤمن فرعون: كان رجلا واحدا.. ثم هو من آل فرعون.. وما دام منهم ... فهو أعرف بهم .. ومن ثم أدرى بأسلوب التعامل معهم.

وفوق هذا أرغب ما يكون فى هدايتهم.. وتحقيق سعادتهم.

فإذا كان مع ذلك مؤمنا.. فقد توفرت دواعى الإصلاح.. إنه ـ بإيمانه ـ لايدعو للحرب.. فالحرب طريق الموت.. وإنما هو باسم الإسلام داعية سلام.. والسلام طريق الحياة.. ومن هنا كان تصرفه تصرف مَنْ يستبقى هذه الحياة..

ذلك بأن الرفق أليق ما يكون بالداعية المسلم: لأن المدعو جبار.. لم يكتف بادعاء الألوهية.. بل تبجح طالباً اتِّباعه! ورؤوس الفتنة من أمثال هامان وقارون.. لا يخسرون فقط دينهم.. ولكنهم يخسرون دينهم بدنيا غيرهم.. وهذا هو الظلم بعينه.. بل بأنفه.. وفمه.. وشحمه ولحمه! وما أحوج هذا النَّشاز إلى داعية حاذق.

ونذكر هنا دولة أنفقت على السجون الملايين.. ومع ذلك ومع الأيام يزداد الخرق اتساعا.. ويزداد طابور المجرمين امتدادا.. وأخيرا.. تُعلن إدارة السجن فى هذه الدولة المسيحية عن حاجتها إلى داعية.. وبالذات داعية مسلم..

وتقدم شيخ مسلم وفى خياله أنه مقدم على وظيفة هى: أن يؤذن فى مالطة! ولقد عبر عن هذا بسؤاله اللجنة المسيحية: لماذا داعية مسلم؟ فقالوا: لاحظنا أنه كلما قضى سجين مدة عقوبته.. ثم خرج.. لايلبث أن يعود إلى السجن مجرما.. أما إذا خرج مسلما.. فإنه لا يعود!!

وتلك واحدة من آيات ربنا الكبرى.. ليعرف الناس أن هذا الدين حقا من عند الله.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

وما أحوج أمة الإسلام إلى دعاة من هذا الطراز.. يبيضون وجه الحياة بما فى قلوبهم من بياض.. ومودة.. دعاة لا يُدلِون بما يحملون فى رؤوسهم من شهادات علمية.. ولكن بما وقر فى قلوبهم من رحمه... ألا إن الرحمة قبل العلم.. ألم تر إلى قوله تعالى:

﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾

إنها الرحمة التى تطرد الهوى.. فإذا الداعية فى القلوب.. وفوق الرؤوس.. وفوق هؤلاء الذين أسلموا زمامهم للهوى أى: للهوان:

إن الهوان هو الهوى قِلبَ اسمه فإذا هَوِيتَ فقد لقيت هوانا

إن الرحمة هى الصورة العملية.. للعلم.. فإذا جف معين الرحمة فلا علم هناك.. وإذ يحذرنا الله تعالى عن أن تكون من الضالين العاملين بغير علم.. فقد كان تحذيره سبحانه وتعالى مدمدما من المغضوب عليهم.. الذين لم يعملوا.. بعد ما علموا.

وإذ يذكر سبحانه وتعالى من خصائص المؤمن هنا أنه: ﴿.. يكتم إيمانه﴾ فقد واجهنا تعالى بدرس فى الكتمان.. يتجه أساسا إلى الدعاة فى الأقليات الإسلامية بين الأمم الكافرة؟

لقد كان من الحكمة أن يكتم الرجل إيمانه.. حتى لا تذهب ريحه كنسمة عليلة ضاعت فى إعصار فتىّ..

قال ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ : [رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم فإذا ظهر عاتبوا من أُخبروا به. فواعجبا: كيف ضاقوا بحبسه ذرعا ثم لاموا من أفشاه.. وفى الحديث: «**استعينوا على قضاء أموركم بالكتمان**».

ولعمرى: إن النفس يصعب عليها كتم الشىء.. ترى بإفشائه راحة. والازم كتمانه: احتيال المحتال فيما يريد أن يحصّل به غرضا، فإن من سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه فإنه إذا ظهر بطل ما يراد أن يُفعل ولا عذر لمن أفشى هذا النوع.

وقد كان النبى ﷺ إذا أراد سفرا ورى بغيره] أ.هـ.

لقد كانت مهمة المؤمن بالغة الدقة من حيث كان لابد له من الكتمان.. عن آله الذين يساكنهم ويعايشهم.. والعيون كلها مفتحة عليه والصب تفضحه عيونه!

ولكنه نجح فى امتحان الكتمان! فكان أسوة لكل مستضعف فى بلاد كافرة فاجرة.. ومن بعده نجحت.. أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط.. والتى كان إيمانها ردا إلهيا على عناد أبيها وحجةً عليه.

لقد بات قلبها بالإسلام ريانَ.. لكنه يؤرقها.. أن يظل حبيسا فى قلبها..

تريد أن تعبر عنه فى بيئة ترفرف عليها رايته.. وتزدهر شريعته.. وترى فيها غذاء روحها.. من أجل ذلك قررت أن تغادر ديار أهلها.. ولكن كيف؟ كيف الوصول إلى الغرض.. من أقلية مؤمنة فى كثرة كافرة؟

لقد بَنَتْ خطة الفرار كما يلى:

عوَّدت أهلها أن تذهب بين الحين والحين إلى البادية لآل عقبة.. ثم تمكث هناك أياما وتعود.. فلما ألفُوا ذلك منها [وكان يصاحبها رجل منهم] استغلت مرَّةً هذا الإلف.. ثم طار بِهَا الشوق إلى المدينة المنورة.. فى رحلة لا عودة منها..

وكان من ذكائها أن بدأت بأم سلمة - رضى الله عنه - لتشفع لها.. لدى رسول الله ﷺ.. فعلت ذلك وشبح أبيها الكئيب يلح على خاطرها.. ولكن الرسول ﷺ يتقبلها.. ويكرمها..

ولماذا نذهب بعيدا.. وهذا هو الواقع الماثل يقدم لنا الجنرال جوهر.. رئيس الشيشان: لقد ظل حينا من الدهر يحتفظ بإسلامه فى صدره.. وكان كلما طار فى الجو رَّطب لسانه بذكر الله.. وكلما التقى بالجنود المسلمين يَسَّرَ لهم أمورهم..

وهكذا يمكر الله تعالى وهو خير الماكرين.. يمكر بالشيوعية.. وفى عُقْر دارها.. كما مكر تعالى بفرعون حين تربى موسى - عليه السلام - وفى بيته بالذات. كما أخرج تعالى عكرمة من أبى جهل.. وأمَّ كلثوم من عقبة.. أخرج من الشيوعية «جوهرا» ومن بيت فرعون موسى: وهكذا الشمس فى عليائها: ينمو بها الشوك.. كما ينمو بها الزهر.. فأما الشوك.. فأما الزبد فيذهب جفاء؟.. وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض.

*****

ماذا رأى الداعية.. وماذا سمع؟

يقول تعالى فى سورة غافر:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾.

لقد كان من الحكمة أن يكتم المؤمن إيمانه ما دام واحدا وكما يقولون: ما دام طائرا يغرد خارج السرب.. وما دام قطرة فى محيط مترامى الشطآن!

وإذن.. فالكتمان.. كتمان الأقلية المسلمة وسط الكثرة الكافرة الفاجرة.. أجدى. ونذكر هنا قول الشاعر:

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة ... سنٍّ ومال ما استطعت ومذهبِ

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثـة ... بمموهٍ ومخرِّف ومكـــذِّب

وما كان أغناه عن رحلة شاقة مضنية.. ولكنه مضى مستعذبا ذلك العذاب:

ولولا ارتياحى للنضال عن الهدى ... لَفَتَّشت عن واد أعيش به وحدى

ولكنها النفوس الكبيرة.. تستهدف الغايات الكبيرة - فإن تحققت فيها.. وإلا فالدموع الغزار شفاء هذه القلوب الكبيرة وعزاؤها:

لعل انحدار الدمع يُعقب راحة ... من الوجد أو يشفى نجيَّ البلابل

ونتساءل اليوم: ماذا قال المؤمن.. الذى نزل الساحة مزودا بأسلحتها؟

وقبل هذا لابد من سؤال هو: ماذا رأى.. قبل أن يقول قولته التى أصابت الهدف؟

رأى القوم.. الجمهور.. والجموع الحاشدة لا تفكر بعقولها..

ولولا ارتياحى للنضال عن الهدى لفتشت عن واد أعيش به وحدى

فهى فائرة ثائرة.. يتقدم الانفعال.. ويتأخر التفكير.. وكل فرد بين هذا الجمع الحاشد واقع تحت مشاعر غلابة.. وهو مستعد بهذا العقل الجمعى أن يضحى بحياته.. وبلا هدف!

والانفعاليون ليسوا من أبناء القيم الراسخة.. ولكنهم أبناء الأزمات الطاحنة.. إنهم استثناء من القاعدة..

وإن أحدهم ليندفع.. ومن وراء اندفاعه: نخاع، لا دماغ!

ثم إن القوم من ناحية أخرى قومُه.. هو.. وإيمانه يشكل خطرا يهز مكانتهم.. من حيث صار بإيمانه حجة عليهم.. والداعية المؤمن مُكلف بأن يتجاوز هذا الخطر.. بلا مضاعفات.. بسلاح هو الكلمة الطيبة.. وفى هدوء الواثق المطمئن..

إنه يريد تغيير اتجاههم عبر الحق.. فليبدأ من الداخل الذى تنطلق منه إرادة التغيير لأن الله تعالى يقول:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ لا يكفى أن يُقنع الداعية القوم بجدية ما يقول.. وأهم منه أن يستميلهم ليتعاطفوا مع دعوته تعاطفا يتوّج فى النهاية بإيمانهم..

فلابد أن يرسل من بعيد أشعة من سناه تستيقظ بها عقول القوم. القوم الذين استبد بهم الانفعال الذى يذهب بأحلام الرجال!

ويحين الوقت لندرك مغزى ما قاله المؤمن... قال:

﴿أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم..﴾

ولاحظ أنه يتساءل.. يدخل على استحياء.. أتقتلون؟

وفى الاستفهام ما يشبه الاستئذان.. ليُسمح له بالدخول..

وذلك منطق الداعية الواعى برد الفعل الغاضب لدى القوم: إنك إذا داهمت مجموعة من سمّار الليالى.. ثم حطمت الكؤوس فى أيديهم لجمعت عليهم مرارتين: مرارة القسوة.. ومرارة الحرمان.

ومن ثم.. سوف يكون رد الفعل على قدر إحساسهم بالقسوة الهاجمة.. والنتيجة أنهم لن يستسلموا لك.. لأن المخطئ قد يرفع الراية البيضاء مستسلما.. ولكن.. لمن؟ لمن كان أفضل منه.. وأنت بالقسوة.. لم تكن أفضل منهم. فقد استوى الماء والخشبة!

وإذا كانوا يقولون: لا تمدح من يعلم من نفسه خلاف ما تقول.. فإنهم يقولون أيضا: لا تَغْضب على من لا يضره غضبك لأن النتيجة على أى حال.. لن تكون فى صالحك.

أما إذا لم يكن أمام الداعية خيار.. وكان لابد من إغضاب أحد. فأغضبِ الناس.. ولا تُغضب ربك..

لكن الداعية المؤمن: لم يغضب ربه تعالى.. ولم يُغضب الناس بهذا القول البسيط البليغ: ﴿أتقتلون.. رجلا﴾؟!!

كان المتوقع - بحسب الظاهر - أن يقول لهم: أتريدون أن تقتلوا لأنهم لم يباشروا القتل فعلا.. ولكنه يُؤْثر أن يقول بالمضارع هكذا: ﴿أتقتلون..﴾.

وبالمضارع.. نستحضر به الصور الخالية.. كأنها تتكرر بين أيدينا.. نراها بعين خيالنا.. رأى عين..

ومعنى ذلك: أن الداعية يتجه بشحنة التأثير المستكنة فى الفعل المضارع ليوقظ النوام..

فإذا هم أمام الصورة حاضرةً يرسمها بناء الفعل:

رجل.. هو موسى - عليه السلام. ملقى على الأرض. مضرّجا بدمه..

ومن شأن هذه الصورة أن تشل أيديهم بما تبعث فى أنفسهم من نفور.. وربما سَحَبوا قرار القتل أمام هذا المشهد الذى لو لم يكن دين.. لتأبت عليه مروءة الرجال..

ألم تر إلى ما قاله العلماء بشأن موسى - عليه السلام؟

لقد أخبره الله تعالى بما فعل قومه. فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا..

لكنه ـ وعندما عاد وشاهد ما فعله قومه على الطبيعة.. ثار الدم فى عروقه.. ثم ألقى الألواح.. ألقاها فقط عندما واجه الموقف عيانا..

وهكذا أراد مؤمن آل فرعون أن تستثير فى القوم مشاعر النفور من قرار القتل.. فكَانَ أن عبر باللفظ الذى صار كالمرآة الصقيلة.. انعكست على صفحتها كل المعانى الأصْلِية والفرعية.. فكان بليغا.. بلغ باللفظ مكان الإقناع.. لولا ما استكن فى قلوب القوم من أطماع!

وعندما تبلغ الكلمة مرماها.. يعززها بثانية ﴿أتقتلون..﴾ ومن تقتلون؟

تقتلون رجلا؟.. إنه رجل... إنه بشر لا شجر.. ولا حجر.. فهل من الرجولة تنحية الرجال.. فَمْن للحياة بعد رحيل الرجال؟!

وهكذا نجد أنفسنا أمام فريقين: قوم فرعون.. يقودهم الانفعال.. ومؤمنهم.. يبدو مزاجه على أوفى ما يكون الاعتدال..

وناهيك بالانفعال مُزْريا بالرجال:

ذلك بأن القرارات المصيرية ـ لا تنبع من نبض القلب.. ولكنها من تفكير العقل..

والمعتدون حكَّموا انفعالهم وأعطَوا عقولهم إجازة.. مفتوحة!

أما المؤمن: فقد نبعت موعظته من عقله.. أو لا..

فإذا حققت غايتها.. جاء دور القلب.. وأخيرا.. فى التمكين لها والحفاوة بها.

وهكذا تَعَلمْنا من شيوخنا: إذا اعتدل مزاجك صفا دمك..

وإذا صفا الدم.. صفا العقل.. فصفت آراؤك.. وزكت أفكارك.

هذا من ناحيتك.. كداع إلى الله تعالى على بصيرة.. فلا تعكر دمك بالانفعال.

أما من ناحية المدعو: فربما كانت بذرة الخير مستكنه هناك فى أعماقه.. فعلى رِسْلك.. فسوف تكونُ بإذن الله شيئا مذكورا... وتَعلَّم من دلائل قدرة

الله سبحانه من حولك:

إن بذرة الشجرة.. صغيرة.. وغائبة هناك تحت أطباق الثرى.. وما من غائبة فى الأرض إلا سوف تكون بإذن الله شجرة..

أجل، هى صغيرة ولكن: فيها الخضرة.. والظل.. والثمر.. ولكن عندما تمُدها بالماء..

وقد يكون المدعو كذلك..

فكن كمؤمن آل فرعون.. والذى سبَقَك على الطريق:

لقد حاول أن يسقى البذرة من حلمه وصبره.. وأناته..

نقول أَنَاته ولا نقول: أنّاته.. على مصير دعوة قد يبكى عليها اليوم أناس لم يقدموا إليها شيئا ذا بال!

أما هؤلاء الرجال..

أما هذا السلف الصالح فقد كانوا دعاة بالسيف.. يواجهون به أعداء الدعوة..

وقبل هذا باللسان يكشفون به مراحل الطريق:

كم سقَوْا موضع السجود دموعا وأعلّـوا القنا دمـاء زكيـة

فلهم فى الدجـا بكـاء حـزين ومع الصبح غضبة مضـرية

أجل... لهم مع الصبح غضبة مضرية.. على أعداء الدعوة..

ذلك بأنهم كما وصفهم ربهم: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾..

وإنك لترى أحدهم كما قيل بحق: لا ينتظم فى حزب وإنما هو بعمله.. يرجو الثواب.. لا الإعجاب.. فكل ما خرج من التراب.. تراب.. ويبقى الثواب.

*****

محاصرة المعاندين

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

ما يزال مؤمن آل فرعون ماضيا فى دعوته.. مع أنه فرد واحد.. وهو درس للمسلم اليوم ضمن أقليات إسلامية تعيش فى بلاد الله.. إنه لم يخضع لسياسة الأمر الواقع ولم يستسلم لضغط البيئة الوثنية الماكرة.. ولكنه واصل السير مستعليا على هذا المكر المُبَيَّت.. فَطَلَع عليهم بالحق.. كالفجر القادم.. يتسلل من أحشاء ليل أرخى سدوله القاتمة..

بيد أنه يحمل معه حِكْمتَه وما يزال وفيا لمبدئه.. فى عدم الدخول فى معركة مباشرة مع قومه.. وظَهَر ذلك فيما يلى:

أولا: مع أن الرجل المراد قتلُه هو موسى ـ عليه السلام ـ.. لكنه لم يصرح باسمه حتى لا يثير فيهم حساسيتهم المفرطة.. فيتحفزوا لإجهاضِ المحاولة.

ثانيا: وعندما ذَكَر احتمالَ صدق موسى أو كَذِبَه.. قدَّم احتمال الكذب: لأنهم يتصورونه كذلك.. ظلما.

ثم لأنه الاقتراح الذى يريح أعصابهم.. فَلْنَعمل ـ ولو مَرْحَليًا ـ على ما يُريح المُعانِد.. لتكون هذه الراحة هدية نقدمها إليه.. لعلنا أن نحصل على ما نريد. ويعنى ذلك: إنصافَهم..

إن المؤمن موقن بصدق موسى ـ عليه السلام ـ وبِنفس القوة موقن باستحالة أن يكون كذابا.. ومع ذلك.. راوح بين احتمال الصدق والكذب.. ومُقدِّما احتمال كذبه.. مُبَالغةً فى السِّرية.. والحيادِ معا..

ثالثا: عندما حذّر من حرمان المسرفين الكذابين من هداية الله تعالى عمم الحكم.. فرارًا من عقبى المواجهة الساخنة.. وذلك قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾ أيُّ مسرف.. وأيُّ كذاب على مدار الزمان.

وفى هذا المنطق ما فيه من الحق.. لمنَ كان ينشد هذا الحق فعلا: فإنه يقول لهم: قررتم أن تقتلوه؟! فما هى مسوِّغات هذه الجريمة النكراء؟ هل هناك سبب معقول؟ أبدا:

الذى حدث أنكم جعلتم المانع مقتضيا.. وهذا خلل وتناقض:

فكونه يقول: ربى الله.. يدعوكم إلى العدول عن قرار قتله.. بل ويدعوكم إلى الإبقاء عليه.. بل واتّباعه.. ولكنكم.. تريدون قتله؟ لماذا؟ لأنه يقول ربى الله.. التعبير هنا: «أن يقول ربى الله» يشير إلى أنهم يُرِيدون قتل هذه الحقيقة فيه.. قبل أن يريدوا قتله شخصيا..

ومتى؟ فى الوقت الذى جاءهم من ربهم الهوى.. وعلى يديه.. إنكم تحكمون عليه بالإعدام لسبب هو بعينه يدعوكم إلى الإبقاء عليه حيًّا..

فلتستيقظ عقولكم.. لِتحسُنَ ترتيب المقدمات.. حتى تصل إلى نتائج سليمة.. فَقرارات مستقيمة.

ثم هو يقول: ربى الله.. ولو أصغتم السمع إلى صَوْتِ الفطرة من داخلكم لعرفتم أنه يسير بكم فى اتجاه هذه الفطرة.. فطرةِ الإيمان بالله تعالى.. ربِّكم الذى تتقلبون فى نعمائه..

ومن هذه النعماء: عقولكم هذه التى عطلتموها.. وعافيتكم هذه التى تسخِّرونها فى غير ما خلقت له..

إن موقفكم هذا المخزى يناقض مقررات العقل السليم.. بل ويهدم مقرراته كما وأنه مصادم للفطرة كابِتٌ لها.

فأنتم مخطئون..

باسم العقل..وباسم الفطرة..وباسم المصلحة الشخصية التى تفرض عليكم الحذر من تحقق ما يُخَوِّفُكم منه.

يقول ابن كثير - رحمه الله -:

[إذا لم يظهر لكم صحةُ ما جاءكم به.. فمن العقل والرأيِ التام. والحزمِ أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يكُ كاذبا.. فإنَّ الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة...وإن يك صادقا وقد آذيتموه يُصبكم بعض الذى يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة.

فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له... بل اتركوه وقومه: يَدْعوهم ويتَّبعونه] ا.هـ.

وهذا التلطف بالمدعو - لا سيما إذا لم تكن القوى متكافئة - من شيم الحكماء الراغبين فى خدمة الدعوة..

فهذا المقداد بن عمرو - رضى الله عنه - : إنه لم يتمكن من الهجرة مرغما. وظل يكتم إيمانه.. ولم يشأ أن يخرج على قومه.. وعلانيةً اتكالا على أنه على الحق المبين. وإنما احتال للأمر وتلطف فى معالجته لأَمْره: فلقد خرجت فرقة من المشركين يوما.. لملاقاة فرقة من المسلمين.. وتصنَّع الرجل الحماس لقومه.. فخرج معهم.. ولم يَحْدُثْ يومئذ قتال.. ولَمَّا هَمَّ قومُه بالانصراف.. سارع وانضم إلى صفوف المسلمين.. فكان إيمانه طعنة للمشركين.. بقدر ما كان فوزا للمؤمنين - ونعْمةً من الله تعالى.. الذى هو سبحانه أغيرُ على دعوته من كل الدعاة. فى كل العصور.. يدبِّر لها.. ويكيد كيدا.. حين يُمْهِل الكافرين.. يُمهلهم رويدا.. ثم يمكر بهم وهو خير الماكرين.

لقد كان القوم مسرفين.. مسرفين حتى فى الكذب حين قال الله تعالى: ﴿لا يهدى من هو مسرف.. كذاب﴾، لا كاذب..

ومن هنا كانت دعوتهم محفوفة بالخطر.. ولِذَا.. فهى فى حاجة إلى داعية يتلطف.. ولا يعنِّف..

ألم تر إليه ﷺ حين شاهد الرجل الغاضب يثور دمُه فى عْروقه.. ثم يندفع ليسرىَ فى وجهه؟ إنه ﷺ لم يواجهه فى لحظة هو فيها كالأسد

الجريح.. وإنما قال لواحد من أصدقائه: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد**».

وكأنه ﷺ يقولها.. على مسمع منه.. وبطريق غير مباشر فلعله أن يعود.. ولو أنه واجهه لتعقَّدت المشكلة.. وتقدم الشيطان ليضرب ضربته!

وهكذا يصنع الداعية الحكيم.

وما تزال الآية الكريمة تعطينا من دروس الدعوة المزيد:

لقد سألت نفسي: أما كان يكفي أن يقول المؤمن: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله.. ثم تنتهي مهمته.. لتبدأ مهمة المدعو في الاستجابة طائعا؟

أبدا.. ما كان يكفي.. إنه داعية لا يكتفي بمجرد العتاب.. والعتاب المر.. لأنهم يريدون قتل رجل هم أولى منه بالقتل.. وإنما يتقدم إليهم ومعه سلاحه.. أدلته.. المقنعة.. ﴿**وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾.

ونقول ثانيا.. كان يكفي هذا المنطق البليغ المسكت المفْحم.. ولكنه يواصل الإقناع.. متنزِّلا معهم.. كاشفا عن الفروض التي يمكن أن يتمخض عنها المستقبل..

إن عناد المدعو.. لايدعونا إلى الفرار من ساحة ينفرد بها وحده.. ولكن إذا لم نجد لمبادئنا من يحققها.. من يطبِّقها.. فلنتراجع خطوة إلى الوراء مؤقتا على الأقل.. ولتنحصر وظيفتنا في تجلية حقائق الإسلام.. ودائما.. فسوف يأتي.. وفي ميقات يوم معلوم سوف تحين تلك الفرصة التي يوافينا من يُقبلون على هذه المبادئ.. طوعا لا كرها.. وحتى إذا لم تحنْ هذه الفرصة.. فقد قلنا كلمتنا وحاجة البشرية إليها أعظم ما تكون.

وما يزال موقف الرسول ﷺ الآنفُ ـ مع الرجل الغاضب ـ وافر العطاء: فقد كان يعلم علة الرجل.. ومعه شفاؤه بإذن الله وبالتأكيد.. ومع ذلك لم يواجه الرجل بما فيه إنقاذُه.. ولكنه تلطف به.. وأعانه على نفسه.. وأرسل إليه شعاع الهداية.. من بعيد.. وسوف يكشف الحقَّ على ضوئه.. وعند ما تهدأ أعصابه.. ثم يعود إلى قواعده سالما!

ـ الآية الكريمة تقول على لسان المؤمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كذاب﴾.

فهل من أمانيّ الداعى أن يظل المسرف.. مسرفا.. والكذاب.. كذابا؟

أبدا.. لا مصلحة له فى هذا. ولكن المصلحة فى أن يتوب.. ويعودَ إليه..

ومن أسباب ذلك أن نواصل التذكر.. ولو من بعيد.. فى محاولة لكشف زوايا الحقيقة حتى تتَّضح تماما وهذا ما فعله المؤمن.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: [لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كذب كما تزعمون؛ لكان أمره بيّنًا يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، فكانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب.

وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيما ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما تَرَوْن من انتظام أمره وفعله] ا.هـ.

ولاحظ من تلطف المؤمن بقومه قوله: ﴿يصبكم بعض الذى يعدكم﴾ إنه.. بعضه.. لا كله.. ثم هى.. عِدَةٌ..

وليست وعيدا.. وتأمل كيف يختار الداعية ألفاظه أدق مما يختار أطايب طعامه، قبل هذا يلمس اقتراح القتل لمساً رقيقا.

﴿أتقتلون..﴾ ولم يقل لماذا تقتلون؟ إن الداعية هنا لا ينصب من نفسه قاضيا.. يحاكم الناس: حتى لا يُثيرهم عليه: ذلك بأن الدعاة أساة.. أساة: لا قضاة!!

*****

من آثار الكلمة القرآنية

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾.

عندما يكون قرار القتل نزوة فردية.. فذلك أمر وارد.. أما أن يكون قرارا إجماعيا يتخذه قَوْم ليس فيهم رجل رشيد واحد.. يقول: لا.. فذلك هو البلاء المبين..

لقد اتخذ فرعون قرار القتل لكن القوم الذين يحتطبون فى حبله موافقون فصاروا بالموافقة مثله سفاحين.. لأن فرعون.. ما صار فرعون إلا لأنه لم يجد من يقول له: تمهل!

وهذا ما دعا المؤمن إلى أن يخاطبهم جميعا كمتهمين فى القضية ﴿أتقتلون﴾ .. وبلا استثناء .

وإذ يعاند الباطلُ ومن حوله الأشياع من الدهماء يروجون له..

وإذا يواجههم المؤمن بالبرهان.. ثم لا يستجيبون.. فقد تعيَّن تجاوز البرهان إلى هز الوجدان بالخوف وذلك قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ.. ﴾ الآية.

وهكذا يظل الداعية وفيا لخطة السير.. وصولا إلى مكان الإقناع.. وهى الخطة التى اختطها المجربون فقالوا: سبيلنا مع العقل.. توضيح المعانى.. ومع القلب..أن نُقَدِّم له الصورَ البيانية المشرقة.. ومع الإرادة .. أن نُقَوِّيها لتنطلق فتنَفِّذَ ما اقتنع به العقل وما مال إليه القلب.

لقد قال الرجل ما ينبغي.. فى الوقت الذى ينبغى.. وعلى النحو الذى ينبغى ولم تكن هذه المراحل مرتبة ترتيبا أبجديا.. وإنما لا بأس وهو يخاطب العقل أن يوقظ القلب فى نفس اللحظة.. وذلك ما فعله.. على ما أشارت إليه آية ﴿أتقتلون..﴾:

لقد نَبَّه العقل فيهم بقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ..﴾ أى أن المعركة بينكم وبينه أخيرا إنما هى معركة فكرية سلاحها اللسان والبرهان وليس البطش والعدوان..

وقبل ذلك قال لهم: ﴿أتقتلون..﴾ فى محاولة لرسم الصورة الكابية لقتيلٍ كلُّ ذنبه أنه يقول: ربى الله.. يُصلِحُ بها نفسه.. ثم: ﴿جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يُصلِحُ بها غيره..

فإذا جاء اليومَ ليقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فقد بدأ يحاصر القَلْب الواله الغافل.. بعامل الخوف.. أى أنها محاولة للتسلل إلى أعماق المدعو بعامل الخوف الذى يقف مع الرجاء ليشكلا معا نظرة الإنسان إلى الحياة..

ولا يمكن أن ينفرد البرهان وحده ليتكفَّل بعملية التأثير.. ولابد من إثارة القلب.. ليرطِّب جفاف الحقائق..

يقول صاحب الظلال:

[فإننا نجد أن المعنى فى الطريقة الأولى يخاطب الذِّهن والوعى..ويصل إليهما مجردا من ظلاله الجميلة.

وفى الطريقة الثانية: يخاطب الحسَّ والوجدان فيصلُ إلى النفس من منافذَ شتى: من الحواس بالتخيل ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء.

ويكونُ الذهن مَنْفَذًا واحدا من منافذه الكثيرة إلى النفس لا مَنْفَذَها الوحيد] اهـ.

وهنا يتجدد يقيننا بمدى ما تُحدِثه الكلمة القرآنية من آثار فى عالم الضمير لو خرجت من قاعدة سليمة.. وفى حراسة وعى بصير..

يقول الدكتور دراز: [والجديد فى لغة القرآن: أنه فى كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد وأمسَّها رَحِمًا بالمعنى المراد. وأجمعَها للشوارد.. .وأقبلها للامتزاج ويضعُ كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به.

بحيث لا يجد المعنى، فى لفظة إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ فى معناه إلا وطنه الأمين.وقراره المكين] ا.هـ.

كل أولئك يفرض على الداعية تخير ألفاظه.. لتجىء قرآنية تأخذ بالألباب.. وعليها من رواء القرآن برهان.

وقد ظل المؤمن ماضياً على طريقه.. وفيًّا لمبدأ الحكمة فى خطابه فماذا قال فى جولته الثانية مع القوم. قال ماحكاه القرآن الكريم على لسانه: **﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾**.

ولاحظ أن هذه الجولة مرصودةٌ لهز وجدان القوم بعامل الخوف تحذيرا.. ومع أن تخويفهم نابع أساسا من شفقته عليهم.. إلا أنه فَضَّل ألا يَهجُم عليهم بما يُروِّعهم فآثر أن يكون رفيقا لهم ابتداء حين قال: يا قوم.. توددا واستعطافا.. ثم.. لكم الملك اليوم.. وهذا تذكير بالنعم.. ثم أعقبه.. بالتحذير من النقم.. تخويفا وذلك قوله: **﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾**.. وذلك يعنى أن البشارة.. وأن الترغيب.. هو القاعدة.. وما سواه استثناء يجىء فى أوانه.. وبالقدر المعقول.. الذى تفرضه طبيعة المرحلة.

وكأنما يريد أن يقول لهم: زمام الحكم فى أيديكم اليوم ـ وهذا اعتراف بما هم فيه من سلطان لا ينازعهم فيه ـ غير أن هذا السلطان لن يدوم.

إنها محاولة لكشف الغشاوة المانعة من رؤية المستقبل والحاضر أيضا.. صحيح أن لكم الأمر اليوم.. ولكن ما شأنكم غداً إذا جاءكم بأس الله..

أستغفر الله.. فلم يقل المؤمن: إذا جاءكم ،ولم يقل جاءكم. .ولكنه قال: إنْ.. إن جاءنا!!

والفرق هائل بين الأسلوبين:

فالتعبير بإذا يفيد تحقق ما بعدها.. والتعبير بإن.. يقلل احتمال حدوثه..

والداعية هنا لا يريد أن يُصفِّيَ حساباتٍ قديمة مع قومه.. كما وأن قلبه لا يتميز من الغيظ ويريد أن يَشفيَ غليله فيهم.. وإنما هو رحيم بهم.. حريص عليهم.. فآثرا التعبير بإن.. المفيدة للشك.. رفقا بالقوارير..

إن القلوب الكبيرة لتسعُ هموم الناس.. ولا تعرف أن تحقد حتى.. على أعدائها.. بل إنها لتشفق عليهم. وفى ساعة العسرة..

وهكذا كان مؤمن آل فرعون..

المؤمن الداعية الذى قال لهم: ﴿مَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ جاءنا.. معا.. فأنا منكم.. وأنتم منى، والخطر المحدق لن يستثنى أحدا..

إنه التخويف إذن على جناح من الإنصاف.. إنصافِ الخصم من نفسك.. وليتعلم الدعاة هذا الدرس:

ذلك بأن من شارات التوفيق فى خطة الداعية نجاحَه فى إشعار المدعو أنه أخوه.. أنْ ينشئ فى قلبه إحساسا بأنه من لحمه ودمه.. وهو معه فى خندق واحد - تجاه خطر يتهدد الجميع..فما يضرهم.. يضره.. ومصلحته من مصلحتهم..

ولذلك حذرهم من بأس الله تعالى.. هذا البَأسُ المتوقع أنْ يصيبهم جميعا وهو معهم..

وليست هناك جبهتان - إنما جبهة واحدة تواجه الخطر المشترك.. تواجهه بما يُنجِي منه وهو الإيمان.. فآمنوا.. خيراً لكم..

وبعد هذا البيان الذى لا يُبقِي حجة فى يد إنسان.. يجىء ردُّ فرعون عاكسا قساوة قلبه:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

وإنه تعجب فاقض العجب من فرعون الذى حاول بالأمس أن يكون واعظ فيما حكى القرآن عنه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي

﴿الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يحاول اليوم أن يكون فيلسوفا.. بل مصلحا اجتماعيا..
هكذا:

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وهكذا.. سكتوا له.. فدخل بحماره؟!!

وهكذا كما قال الباحثون: [لايخرج الشر على الناس بوجهه الحقيقى. ولو خرج عليهم بهذا الوجه ما تبعه أحد. ولكن الشر يتجمل. يرتدى أقنعة تخفى بشاعته. ويتحدثُ عن الخير والإحسان والحرية والجمال.. لا يقصد ما يتحدث عنه. ولكنَّ هذا جزءٌ من عُدة النَصب كما يقولون. ولهذا قال فرعون فيما حكاه القرآن الكريم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾] ا.هـ.

وعندما يستمرئُ الإنسان المعاصى وعلى المدى الطويل.. يزيِّن له الشيطان سوء عمله فيراه حسنا..

وليت الغرور وقف به عند هذا الحد.. لكن المصيبة أنه لم يكتف بعناده وكفره فحاول فرض رأيه بالقوة!

مع أن الحق يقول: لا إكراه فى الدين.. ذلك بأن العقائد لا تفرض بالقوة.. وهو منطق الحياة من حولنا:

فإنك تستطيع بالعنف أن تجبر الحِصان على أن يخوض لجة البحر..

لكنك لا تستطيع أبدا أن تجبره على أن يشرب من الماء!

لقد حاول فرعون أن يفرض وجهة نظره.. بالصيغة المؤكدة:

ما أريكم إلا ما أرى.. وكأنما يريد أن يخدع قومه فيقول: كلام المؤمن.. فلسفة أما أنا فرجل واقعى.. ما أقول لكم إلا ما أراه..

ونسى أن فرض الرأى يمكن أن يتم فى عالم المرئيات. أما فى العقائد. فلا.

وإذ يبالغ فرعون فى أسلوبه.. فإنما يعكس ما يحس به من خواءٍ نفسِى..

ومن ثم يستجلب من الخارج ما يسند الحائط المائل ولن يغنيه ذلك من يوم قريب تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا.

يا ابن سبعين وعشر	وثمــــان كامـــــلات
غرضا للموت مشغو	لا بخـــذ منًى وهات
ويك لا تعلمُ ما تُلقَى	بــــه بعــد الممـــات
من صغار موبـــقات	وكبـــــار مهلـــكات
يا ابن من قد مات من	آبائـــه والأمــــهات
هل ترى من خالـــد	من ذى طغـاة وعـــتاة
إن من يبتاع بالديـــن	خـــسيسات الحـــياة
لَغَبِىٌّ الرأى محفوف	بطــــول الحـــسرات

*****

غيْرة محروسة بالرجولة

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣٣].

كان مؤمن آل فرعون.. رجلا.. وكان على الحق غيورا ـ غيْرة محكومة بهذه الرجولة المؤمنة:

فمن بركات الرجولة الانضباط: فعقل الرجل. يمضى أمامه يسعى نوره بين يديه ومن ورائه بقيَّةٌ ملكاته.. فلا يَضل بعون الله ولا يزل.. بعدما ملك بالتفكير هُياج العواطف فى اللحظات الحرجة.. على ما يقول الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ... ولا جازعٍ من صرفه المتقلب

وهو من إيمانه فى مثل ضوء النهار: لا ينافق.. ولا يخادع..

وإذا فرضت عليه المنعطفات الخطيرة أن ينحنى للعاصفة كى تمر بسلام.. فإنه يظل ثابتا معتصما بإيمانه:

فَسِرِّى كإعلانى وتلك خليقتى ... وظُلمة ليلى مثلُ ضوء نهارى

أما غيرته فيعلن عنها موقفه: فقد آمن بحقية رسالة موسى ـ عليه السلام ـ فآمن به..

ونشأ من هذا الإيمان غيرة عليه.. فعبر عن هذه الغيرة بهذا الموقف الذى لَوَّن فيه الخطاب.. فى محاولات مكررة للوصول إلى قلوب القوم:

خاطب العقل.. ثم هز الوجدان فخوفهم من المستقبل القريب من بأس الله الذى لاعاصم منه.. إذا جاء.. وها هو ذا اليوم ينشُط الذاكرة.. فى

رجعة بهم إلى الماضى ليدركوا عادة أحزاب الكفر وهى: الجحود والتمرد.. ثم عادة الله تعالى فيهم وهى: العقاب العاجل. وذلك قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾.

لقد دمر الله تعالى عليهم.. وللكافرين اليوم أمثالها. وإذا لم تكن عينهم أحاطت بمصارع هؤلاء الغابرين.. فها هو ذا المؤمن يفتح بصائرهم وآذانهم.. ليسمعوا.. ويعتبروا. والعاقل من اعتبر بغيره..

وإذا لم أر الديار بعينى فلعلى أرى الديار بأذنى

لقد كان المتوقع - بمنطق البشر - أن يُغادر المؤمن ساحة الجدال بعد ما سمع من تبجح فرعون الذى قلب به الحقائق.. لكنه لم ييأس وواصل الحوار مذكرا إياهم بمصارع الغابرين:

قومِ نوح.. الذين أغرقوا فأدخلوا نارا..

وقوم عاد.. الذين استكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة.. فأخذهم الله بذنوبهم..

وثمود الذين جابوا الصخر بالواد فأخذتهم صاعقة العذاب الهون..

إنه لَيُذكرهم بسنن الله تعالى فى الاجتماع تذكيراً يحذرهم بأنهم خاضعون لهذه السنن:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

وهو نفسه المعنى الذى أورده حين حذرهم من هذه الساعة فى قوله:

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

ولاحظ مرة أخرى.. وليست أخيرة.. لاحظ قوله: أولًا: يا قوم.. وثانيا: إنى أخاف.. أى أنه يناديهم بدافع من الدماء المشتركة.. والمصير

المشترك. خائفا وجلا من ذلك المستقبل الرهيب الذى يوشك أن يَحُل قريبا من دارهم لو لم يؤمنوا. . ولاحظ ثالثا أنه أتى بوصف التناد: ﴿أخاف عليكم يوم التناد﴾ ولم يقل: اليوم الآخرِ مثلا.

إنه اللفظ الموحى. . الكاشف عن أهوال ذلك اليوم العصيب: إنه يوم التناد: ينادى المرء على نفسه: واثبوراه. . يَندُّ كالبعير هاربا من هول الموقف. . لا يلوى على شىء. . ثم ينادِى أهلُ الجنة أهل النار: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا. . فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ وحين ينادى أهلُ النار أهل الجنة: ﴿أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله..﴾.

وتأمل كيف يُؤْثِرُ السياق القرآنى كلمة على كلمة لتجد نفسك أمام البلاغة فى أفقها السامى: أمام الجملة. . فإذا هى هرم. . له أضلاع. . كُلُّ ضلع. . كل كلمة لها إشعاعها. . وهى مع أختها فى أعلى صور التناسق والانسجام. .

وإذا أنتَ من الكلمة أمام مرآة صقيلة تعكس المعنى الأصلى. . والمعانى الفرعية فى مهرجان يأخذ بِحجَزك إلى ما يريد لك الداعى. . شريطة أن يكون لك قلب. . واع رشيد.

وهكذا: يراوح الداعية بين الدليل المقنع. . والتخويف المفزع. . بلا لفظ مقذع. .

لماذا اللفظ المقذع والحق فى أيدينا. . وهو فى غنى عن فاحش القول؟

وإنه لموطن من مواطن الأسوة فى حياته ﷺ فلم يكن فاحشا. . فطرة. . ولا متفحشا. . لو تكلف الفحش ما طاوعته نفسه. .

كما وأنه لم يكن متفاحشا. . لا يفاعل. . أى لا يرد عليه بمثله فلا تستفزه نفسه. . ولا غيرُه. . بل هو على خلق عظيم. . متمكن منه راسخ فيه، مسيطر على انفعاله فلا ينفلت عياره. . وإنما ـ كما قالوا ـ يُنْفِق منه كيف يشاء وبحساب. . وكذلك يفعل كل من جاء على طريقته واستن بِسنته.

إن المدعو المستكبر يبدأ الخلافَ من عنده. . فإذا رددت عليه باللفظ البذىء. . بدأ الخلاف أيضا من عندك. . فكانت المسافة بينك وبينه كلها

تضاريس.. بل ألغام. وكما قالوا: فأنت تتق وأنا متق فكيف نتفق؟

كيف نتفق وكل المسافة بينك وبين المدعو شائكة.. فلا يرَى كل ملامحك.. ولا يسمع صوتك.. ولا تطوله يداك؟!

ولكن.. ماذا فى التذكير باليوم الآخر من آثارٍ متوقعة.. وكيف كان خطا بارزا من خطوط المنهج الإسلامى فى الدعوة؟

إن الكفر باليوم الآخر: قسوة فى القلب وفساد فى الضمير. لأن أساس الرقة وحياة الضمير: الخوفُ من الحساب والجزاء.. فلما قسا القلب فسد التصرف. ذلك بأن الشهوات تسد على الملحدين طريق الإيمان.. فلا يبصرون عاقبة أمرهم ولا غاية سيرهم.

ولأن الإيمان بالآخرة قيد شديد القبضة على حرية شهواتهم فهم ينكرونه.. أو يتنكرون له..

والداعية الناجح هو الذى يقطع عليهم طريق اللذائذ التى يحاولون تَقنيها بالإصرار عليها..

وكذلك فعل مؤمن آل فرعون: لقد وجد نفسه أمام علة ضاربة الجذور فى قلوب قومه.. علة الاستكبار على الحق... بالاستغراق فى لذائذ الدنيا.. فنغَّصَ عليهم ذلك الواقع الرتيب بالصَّيحة الراشدة.. بالتحذير من يوم التناد.

ثم يلوّح لهم من بعيد.. وطبق مَنهجه فى عدم الدخول فى معركة مباشرة معهم.. فيقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾... وهى لمسة من شأنها أن توقظ العقل.. ليدرك هذه الحقيقة: إن الهدى والضلال بيد الله وحده.

ومَن يضلل الله فما له من هاد.. ومن يُهنِ الله فما له من مكرم:

إن الوسائل البشرية من العلم.. والتجربة عاجزة عن مواجهة المفاجآت التى هى أكبر من حسابات الإنسان.

ومن هنا.. فإن اعتماده على نفسه خُسران مبين.. وعليه إن كان يحب لنفسه الخير أن يطلب الهداية من مصدرها.. وأن يفتح قلبه للنور الوافد.. فإن لم تطاوعه نفسه.. فَلْيُخْلِ الطريق.. فمن ورائه مخلصون قادمون.. مَشُوقون!

ألا وإن تذكيرهم بالآخرة.. إنما هو تابع من الشفقة عليهم.. وبنفس القوة هو دعوة إلى تأمين الحاضر.. بالإيمان باليوم الآخر..

إن مجرد الظن بحقية هذا اليوم كاف فى ردع الناس عن الشر لينشُرَ الأمن لواءه..

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها فانظر إلى صورة الحياة فى غياب الإيمان.. بالغيب!

لقد جاء الرجل الغربى ليرى عُمَرَ - رضى الله عنه - يَغُطُّ فى نوم عميق فقال كلمته المأثورة: عدلت.. فأمنت.. فنمت..

وكان هذا الشاهد الغربى أشدَّ إحساسا بما يرفل فيه عمر - رضى الله عنه - من نعيم وأمن. بينما هو تحت الشجرة.. تهب عليه رياح سافية.. لأنه أى الرجل فقد فى بلاده. ذلك فمع ما يرفل فيه مجتمعه من رفاهية.. فَقَدْ فَقَدَ الأمن.. وحول البيت: حارس أمين.. وكلب مدرب.. وأسلاك شائكة.. وإنذار مبكر ومع ذلك يخافون.. وهكذا.. يظل التوفيق حليف المؤمن الذى يخوِّف.. ولكن بحساب، وَعَلَى مراحل.. فإن استجابوا، فبها.. وإلا، فلنبحث عن مَنْفَذٍ جديد.. فلعله أن يفيد.

*****

من عطاء الإيمان

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ما تزال الرجولة المحروسة بالإيمان ـ فى شخص مؤمن آل فرعون ـ ما يزال عطاؤها موفورا.. الرجولة التى تقدم للدعاة ثمرتها وهى المروءة.. والإيمان يُفيض من بركاته على لسان المؤمن وقلبه.. رُطَباً جنيا.. فأين مظهر الرجولة.. وأين بركات الإيمان فى منطق الرجل المؤمن؟

من ثمرات الرجولة هنا: أنها تختفى عند المطامع.. ولا تظهر إلا فى المعامع!:

وتأمَّل مصداق ذلك فيما حكا والقرآن على لسانه: ﴿ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾.

إن الملك ـ لكم ـ وحدكم.. ولست طرفا فى القضية. ـ فأنتم صنَّاع القرار. وما أنا إلا ناصح أمين. ـ تنتهى مهمتى بالنّصيحة.. لتبدأ مهمتكم بالانتصاح..

ولكن المؤمنَ لحظة الخطر يقول: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾.. من من ينصرنا.. نحن جميعا.. وأنا معكم.. بل قبلكم فى دوامته..

وكم تُحمِّل الرجولة أصحابها من تبعات.. حين يدفعون.. ولا ينتظرون العوض.. وحين ينفث الأعداء سمومهم.. تنفيسا عن حقدهم.. فإن عطاء الرجولة باقٍ غيرُ محظور:

صدقا فى الحديث.. وأدبا فى الاستماع.. ووفاء بالعهد.. وزهدا فى الدنيا.. وتضحية بالنفيس.. وكلما توهجت بروق المطامع تُحاولُ أن تخطف الأبصار نأى الرجل عن جاذبيتها بمنازل.. وأبعد عما لا يليق به.. بمراحل.

وأما عطاء الإيمان هنا.. فكان فى هذا الأسلوب الفريد:

أولا: بقاء الأمل فى الإصلاح قائما.. مهما تبد جو بالغيوم..

ثانيا: غياب لهجة الأمر والنهى فى الدعوة..

وهو بذلك يؤكد أنه داعية يحترم نفسه.. فهو يخاطب السلطان.. وإذن فعليه أن يُجْمِل فى الطلب.. وإذا لم يكن لك ما تريد.. فَرِد ما يكون ومع هذا فهو ينأى بنفسه عن الفضيحة التى تهز شخصيته فى أعين أتباعه. والحكماء يقولون: إذا أردت أن تُفْتضح.. فَمُر من لا يمتثل أمرك!

وإذن. فإن كانت إجابة الدعوة تبدو مستحيلة. فليكن خيرَ أعوانك الحيلة!

وقد أسعفه الإيمان بالحيلة باختيار أسلوب الاستفهام.. الذى لا يحس معه المدعو بمرارة الالتزام وذلك قوله: ﴿.. فَمَن يَنصُرُنَا﴾؟

ويعنى ذلك أنه وجد نفسه أمام بُحَيْرة ساكنة.. فرمى فيها بحجر.. بحجر كريم.. فتحرَّكت.. وتدافعت أمواجها.. وتَدَافُعُ الأمواج لدى المخاطبين معناه: إثارةٌ لهم يترتب عليها تفكير.. ثم محاولةٌ للفهم.. وصولا إلى جواب يحميهم من الإحراج.. وكذلك فعل مؤمن آل فرعون.. والذى أحرجهم بالسؤال.. الذى كشف فى نفس الوقت عن دقة موقف الداعية التى تحمله على دراسة المدعو.. وظروفه.. ولون ثقافته.. ومستواه الاجتماعى.. ليواجة كل حالة بما يناسبها..

ولله در القائل:

إذا كان دونى من بُليتُ بجهله	أبَيْتُ لنفسى أن أقابَل بالجهل
وإن كنت أدنى منه فى الحلم والحجا	عرفتُ له حق التقدم والفضل
وإن كان مثلى فى محلٍّ من الحجا	أردت لنفس أن أجِلَّ عن المثل

كل هذه المروءة.. والواقعية.. والتلطف بالمدعو.. واحترام النفس.. والداعية فى مواجهة حاكم وثنى فاجر!

فما أجدر الحاكم المسلم بهذه المروءة ـ وهذا التلطف.. بحكم الإيمان الجامع.. والوطن المانع.. وإلا صار الأمر على ما يقول الشاعر:

أحرام على بلابله الدوح	حلال للطير من كل عش؟!

لقد كان المدعو هنا عاتيا على الله ورسوله.. ولُغَتُه المفضلة فى خطاب الناس هى: التصفية الجسدية.. ومع ذلك فكلَّما ازداد جرما.. كلما ازداد الداعية حلما.

وتلك كانت وَصاةَ الحكماء الذين صاغوها شعرا فقالوا:

احفظ لسانك إن لقيت مشاتما لا تَجْرين مع اللئيم إذا جرى
من يشترى عِرْضَ اللئيم بعرضه يحوى الندامة حين يقبض ما اشترى

أجل.. ما أمر الخسران بهذه الصفقة التى تخسر فيها عرضا مصونا.. بعرض مدنّس:

بلاء ليس يعدله بلاء عداوة غير ذى حسب ودين
ينيلك منه عرضا لم يصنه ويرتع منك فى عرض مصون

فإذا لم يسعفك الحلم يوما.. ففى التحلُّم بديلٌ ينجيك من العذاب:

إذا أنا كافَيْتُ الجهول بفعله فهل أنا إلا مثلُه إذ أحاوره؟
ولكن إذا ما طاش بالجهل طائش علىّ.. فإنى بالتحِلُّم قاهره!

ولقد استطاع المؤمن بالحلم تارة.. وبالتحلم أخرى أن يستمر ماسكا زمام المبادرة.. وماسكا أيضا زمام المدعو الذى لم يَدَعْه ليفلت من بين يديه!

ما أحوج الدعاة اليوم إلى الحلم.. ثم التحلم من أجل الدعوة التى قد يضرها الانفعال الذى يذهب بأحلام الرجال..

لقد كان مؤمن آل فرعون يواجه أعتى الطغاة.. فما لانت له قناة.. قناةُ حلمه الذى احتوى الموقف على ما فيه من طغيان.. وبهتان..

وذلك نَابعٌ أساسا من فهمه لطبيعة رسالته:

فهو مذكِّر.. منذر.. محذر.. ﴿لستَ عليهم بمسيطر﴾ وما أنت عليهم بجبار.. وإذن.. فليس هو الذى سيغيِّر الكون.. وفى يوم وليلة.. ولكنه فقط وسيلة.. أما الذى سيجعل من الإسلام قوة الغد.. فليس هو الداعية.. وإنما ينطلق الإسلام فى فجاج الدنيا بقواه الذاتية.

ومن شأن هذا الفهم أن يريح الأعصاب أعصابَ بعض الدعاة الغيارى

على الإسلام.. لتزول غِشاوة الانفعال.. حتى نُتِيحَ للعقول أن تقرأ التاريخ.. تاريخ أمتنا تلك الظافرة.. بالتقوى.. ليربو الأمل فى صدورنا ـ مهما كانت الأوضاع ـ بأن المستقبل لهذا الدين.

إن أعداء أمتنا قد يَفْرِضون على الناس بالقوة.. قوةِ المكر بالليل والنهار أنهم هم المنصورون.. وهيهات.. هيهات.. لأن الواقع التاريخى أعلى منهم صوتا.. وأصدق حديثا..

ذلك الواقع الذى يؤكد بلا أدنى شك أن العاقبة للتقوى..

قالوا: [إن لكل أمة يومَ عز ـ تَستفرغ فيه قوّتها وتستَنْفِذُ طاقتها ثم تعُود إلى خمولها:

لقد حكمت أسبانيا أوروبا كلَّها يوما من الأيام. ثم نامت. وبسطت البرتغال سلطانها على أقاصى البحار ثم غَفَلت. وركّزت فرنسا رايتها على عهد نابليون ـ على كل رابية فى القارة. وسارت اليونان يوما تحت راية الإسكندر إلى حدود الصين، واجتاح المغول الأرض: يقُودهم جنكيز ثم تيمور لكل أمة يوم واحد.. ثم تنام.. إلا هذه الأمة.. أمة محمد ﷺ. إنها يا سادة بدْع فى الأمم. ما فَقَدت قط رُجُولتها. ولا نبلها، من أيام الجاهلية الأولى..].

أجل ما فقدت أُمّتنا فى يوم ما.. رجولتها.. ولا قوتها التى تدخرها فى كيانها ليوم الخلاص. وعندئذ سوف تُخمِلُ سابقيها. وتوئس لاحقيها بإذن الله!

ويخطئ الذين يبالغون فى تقدير طاقاتهم فيحسبون أنهم بالحماس وحده ينصرون الله تعالى.. ويمكنون لدينه فى الأرض..

إن القوة الحقّ هى التى أودعها الله تعالى ذلك الدين القيم.. والذى ذاع فى الآفاق بقواه الذاتية.. ولقد زوى الله تعالى للرسول ﷺ الجزيرة العربية.. وهى سدس بلاد الإسلام..

وكان الإسلام على كثرة الضحايا ـ كما قيل ـ : هو الذى يغزو القلوب فنقلها من هباء الجاهلية .. إلى غناء الإسلام ..

وما تمّ له ذلك إلا لأن معاركه لم تكن تعبيرا عن نزعات شخصية.. أو

تنفيسا عن غيظ مكتوم. وإنما كانت تلك المعاركُ المجردة الخالصة لوجه الحق..

إن الإسلام - كما قيل - لم يحارب أهل مكة. وإنما قاتل أئمة الكفر. فلما نحّاهم.. دخل مكة بلا قتال.. فجاء نصر الله. ثم كان الفتح. فتحُ القلوب..

ولما دخل ﷺ مكة قال: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

ومعنى ذلك: أن الإسلام وفى لحظة تَمكّنِه من رقابهم.. لم يفرض عليهم عقيدته.. ولذلك فقد فتحوا قلوبهم للإسلام..

لم يحارب الإسلام أهل الشام. ولا أهل مصر.. ولكنه كسر شوكة الروم.

ولم يحارب أهل العراق ولا أهل إيران وإنما كسر شوكة الفرس..

فلما تمَّ له ذلك. ترك البلاد لأهلها ليجيء قرارهم حرا.

أى أنه انتزع البلاد من غاصبيها لتعود إلى بنيها!

ولقد تعجب الجاحظ يوما من قلة أموال العرب فى العراق بالنسبة لغيرهم من الأعاجم.. ذلك بأن رسالتهم الحق أ.هـ.

وذلك واحد من أبرز الدروس فى قصة مؤمن آل فرعون: عندما استبعد العنف.. والتجريح عائذا بالحيلة.. والحكمة.. والحلم.. فى مزيج هيأه الله تعالى به لغزو القلوب من الداخل.. وإن لم يحقق نصرا حاسما.. لقد كان يكتم إيمانه.. وكان أيضا يكتم عيوب قومه مُفَصَّلَة.. ومازالوا قومه.. دمه.. ولحمَه.. على وثنيتهم!

وهو درس للدعاة ألا يفتحوا الملفات القديمة.. وأن يُعرضوا عن نشر مثالب الخصوم إلا ما له صلة بموضوع النزاع.. وعليهم أن يجعلوا للمذنب خط رجعة يفيء إليه.. حتى إذا تاب يوما.. لم يكن عليه من حرج فى حياة جديدة رشيدة.. بلا أشباح تطارده وإنما هو الميلاد الجديد بلا خطايا ولا بقايا.. بقايا من ماض تولى... ذهب ولن يعود.

*****

من أسرار المنطق الفرعوني

يقول الله تعالى في سورة غافر:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[غافر: ٣٦ ـ ٣٩].

عندما انتهى المستشرق الغربي من دراسة اللغة العربية.. انتَبَذَ بالمصحف الشريف مكانا قصيا.. في محاولة للوقوع على نقطة ضعف ينفذ منها إلى الإسلام.. فلعله أن يُصيبَ منه مقتلا.. تماما كاللصوص المحترفين... إنهم لا يهجمون على البيت هكذا اعتباطا.. وإنما.. في سجوة الليل.. ثم يدورون حوله ليقفوا على أدنى حائط فيه.. [illegible]ـللوا حذرين..

ولقد مضى على المستشرق حينا من الدهر قرأ فيه القرآن في مغارته.. أو مُدَّخله.. مرة.. فلم يجد فيه مطعنا.. ثم كرر المحاولة للمرة الثانية. فلمَّا بَدَا لَهُ القرآنُ شيئا فريدا.. عصيا على الاختراق.. اتخذ قراره الحكيم: حين اتجه إلى أقرب مؤسسة إسلامية.. ثم.. وعلى الملأ.. أعلن إسلامه!

وهكذا يفعل المنصفون الملتزمون بما يسفر عنه البحث النزيه..

أما المستكبرون من أمثال فرعون.. فإنهم يختالُون بَشِمِينَ بسكرة الاستكبار. وللأرض من تحت أقدامهم وئيد..

ولَيْتَهم يقفون عند هذا الحد.. لكن.. ولأنهم جبارون.. فهم يريدون «إجبار» الآخرين على اعتناق مذاهبهم الضالة.

لقد ذكرَّ المؤمن فرعون وملأه بما كان من أسلافهم مع يوسف ـ عليه السلام..

وكيف استمروا على كفرهم بعد ما جاءهم بالبينات.. فكانوا بالإصرار مردة عتاة.. وكان الظن أن يكونوا عقلاء يعتبرون بغيرهم.. فعاشوا بالتمرد في تيهٍ من الضلال المانع من الهداية ومن وراء ذلك كله: الكبر الذي هو بيت الداء ومصدر البلاء والذى سوّل لفرعون أن يستمرّ في عناده فيما حكاه القرآن عنه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾.

وللوهلة الأولى تجدُ نفسك أمام علة من علل البشر يتمثلها فرعون تلك العلة التى نبه إليها الشاعر القائل:

بلاء الناس مذ كانـــــوا إلى أن تأتى السّاعـــة
بِحُـــبِّ الأمــر والنهـــى وحبٍّ السمع والطاعة!

ونحاول تأملَ هذا الموقف الفرعونى.. فماذا نرى:

١ـ كان لِمَنْطق المؤمن أثرُه لا شك.. والذى بدأ فى هذه المظاهرة الإعلامية من فَرعونَ الذى بدأ يتراجع.. مقررا دراسة القضية التى أثارها موسى ـ عليه السلام. وذلك كسب هائل على أى حال أن يقبل الطاغية مناقشة القضية.. وما يدل عليه من اعترافه بأهميتها ابتداءً ويعنى ذلك أنه بدأ يسلم بوجود إله غيره..

٢ ـ لكن ذلك القرار يحتاج إلى مُناورٍ من الطراز الأول يجيد فن الخداع لينطلىَ فى أعينَ المخدُوعين..

أ ـ وها هو ذا يتظاهر بالإنصاف.. والنزولِ على ما يُسفِر عنه البحث العلمى النزيه.. حين قرر دراسة القضية المطروحة.

ب ـ ولا يَتَّهم موسى ـ عليه السلام ـ بالكذب المتيقَّن.. لكن بالكذبِ المظنون حتى لا يصطدم بإحساس الناس.. بل بإحساسه هو شخصيا بأن موسى ـ عليه السلام ـ من الصدق فى المكان المكين.

جـ ـ وقد يصوغ الطاغية قراره صياغة تشم منها رائحة السخرية.. التى يُراد بها هز صورة الطَّرفِ الآخرَ حتى لا يبدو فى أفضل حالاته..

د ـ ثم يُصْدِر إلى وزيره هامان.. فرمانا.. ليبنىَ.. يبنى ماذا؟ مبالغة فى

التهويل.. يبنى صرحا..قصرا.. عاليا.. منيفا.. شاهقا.. فالرجل إذن جاد فى قوله.. فلندعه فى سراب من أمانيه.. لنحكم باسم الحق عليه فنقول: لقد عاش فرعون زمنا طويلا.. فى صحبة الشيطان الرجيم.. الذى زين له سوءَ عمله فرآه حسنا.. ومحاولته تلك محاولة للتهرب من مواجهة الحق الصادع.. وقد كان هناك قَبْلَ قرارِ بناء الصرح قرارٌ بهذا الهروب.. ولكن. كيف؟

بإعادة ترتيب الأوراق بهذا الضجيج.. حتى إذا تراجع.. كان له من إعلامه المزوَّرِ ما يُخْفِى حمرة الخجل!

ولنترك فرعون ينسحب من الساحة مجللا بالعار.. ثم لنقفْ وقفة متأنية أمام تهمة قديمة. جديدة.. وهى: ما يلجأ إليه الكذاب.. حين يرمى الصادق بدائه.. ثم ينسلّ.. وذلك فيما حكاه القرآن الكريم عن فرعون: ﴿**وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾.

فهل كان فرعون يعتقد حقا أن موسى ـ عليه السلام ـ كذاب؟! أبدا!

وإنما هى كما قلنا: العلة القديمة المتمثلة فى محاولةِ الباطل تشوب وجه الحق المبين.. وهيهات..

وإنك لتحس بهذه العلة الدفينة تنحدر من الأسلاف إلى الأخلاف..

وهو واحد من الهموم الكبيرة التى يجب أن يتنبه الدعاة إلى مغزاها قديما حديثا: فأعداء الإسلام يريدون تغطية جرائمهم بافتعال التهم يحاولون بها التشويش على الإسلام.. حتى نشغل أنفسنا بالدخول معهم فى معارك جدلية نبذل فيها طاقات هى أساسا مرصودة للتعمير وترقية الحياة..!

إنهم يحاولون أن يظل المسلم فى موقف الدفاع. ولا يأخذُ موقع الهجوم.. وما أشبه الليلة بالبارحة.. إنه فرعون المسرف.. الكذاب.. المرتاب.. يتهم موسى ـ عليه السلام ـ بالكذب.. وما زالت زبانيته تقوم بنفس الدور حتى اليوم.. فانظر ماذا ترى.. وماذا تسمع.

لقد أذلت أمم كافرة.. أمما أخرى.. فَصَيَّرَتْها لها عبيدا.. وسكت الإعلام المادى عن هذا العوار البيّن.. لكنه فى نفس الوقت وطبق النظرة

الفرعونية.. يفتح صدره ليتسع.. فَيُذيعَ هذه الافتراءاتِ يضاهئ بها قول الذين كفروا من قبل.. قاتلهم الله!

لقد اتهموا الإسلام بأنه متعصب.. وإذن فهو نقيض للعروبة. وزعموا أنه مناقض للفكر الوطنى.. لأنه للناس كافة..تم رددُّوا: أنه ضد العدالة.. لأنه يقول: والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق. ثم قالوا: إنه دين يمنع الاعتزاز بالماضى.. لأن هذه دعوى الجاهلية..

وأخيرا.. وليس آخرا زعموا أنه دين يمنع الانفتاح على العصر.. لأن ذلك بدعةٌ.. وكل بدعةٍ ضلالة!

ولقد قالوا كلمة الكفر.. وكانوا قومًا بورا.. وكانت شهادتهم منكرا من القول وزورا..

لكن إذا بذل الأعداء فطرة العدوان فإن للإسلام دعاتَه القادرين على رد العدوان.. ومنهم ذلك الشاعر القائل:

يقولون فى الإسلام ظلما بأنه ... يَصُدُّ بنيه عن طريق التقـــــدم
فإن كان ذا حقا فكيف تقدمت ... أوائله فى عهــــــدها المتقدم
وإن كان ذنبُ المسلم اليـــوم جهلَه ... فماذا على الإسلام من جهل مسلم
هل العلم فى الإسلام إلا فريضةٌ ... وهل أمةٌ سادتْ بغير التعلم
لقد أيقظ الإسلام للمجـــــد والعلا ... بصائرَ قوام عَنِ المجـــــد نُوَّمِ

ولقد كان رد المؤمن هادئا.. وكان قويا فى نفس الوقت: إنه ظل محتفظا باتزانه العاطفى.. فلم يغضب.

وقد أتاح له الهدوء فرصة الرؤية الكاشفة.. فعالج الداء متئدا.. ولم يعالجه طفرة أو فى الوقت المناسب وذلك قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾.

هكذا: يا قوم.. إن الذى يناديكم.. واحد منكم..وليس أجنبيا مستوردا! ومن ثم فهو أحنى عليكم.. بِحكْم لُحمة الدم.. وواشجةِ القربى.. ومهما تقولّتم عليه الأقاويل.. فما يزال على حبه القديم:

بلادى وإن جارت على عزيزة　　　وأهلى وإن ضنوا على كرام

وليس حبه لكم مجرد ادعاء.. إنه ليس «دعاية» وإنما هو دعوى بدليلها.. ودليلها أننى أقول لكم [اتّبعونى].. ولا أقول لكم [اتبعونى].. هكذا بسهولة.. اتركوا ما أنتم عليه فى يوم وليلة كما يفيد الفعل المخفف [اتْبعونى].

ولكن.. أنا أعلم أن هناك أعرافا وتقاليد تُكبِّل خطاكم. وتئود ظهوركم..

ولذلك أقول لكم: اتّبعونى.. حاولوا.. تكلفوا.. إن لم يكن طبعا.. فتطبعا إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا..

وماذا ينتظركم هناك إن استمعتم إلىّ؟ إنه الهدى.. الخروجُ من التيه.. من الظلام.. إلى النور.. لتروا الدنيا على حقيقتها.. ماضين على سبيل الرشاد.. إنه السبيل الأوحد.. ولا سبيل سواه.. وبينما يتخبط الناس فى الظلام فيبددون طاقاتهم سدى.. فإن المصلحة الشخصية تفرض عليكم أن تستجيبوا طائعين.. ولعمرى إنه المنطق الهادئ الرزين.. كالماء المنسرب هادئا.. تعترضه الصخرة.. فيدور حولها.. ثم فى النهاية يحتويها..

وهكذا يبدو الداعية متسما بالحلم.. بمزيج من المعرفة، والصبر، والأناة والتثبت.. وفى الوقت الذى يغضب الأحمق فيزايلُه عقله فيقول: ما سولت له نفسه. ويعملُ ما يشينه ويُرْديه.. فى هذا الوقت يظل الحلم سيد الأخلاق.. وهو واقف مع الداعية يجاهد معه.. وبه يكسِب كل يوم أنصاراً جُدُداً:

وكظمىَ الغيظ أولى من محاولتى　　　غيظ العدو بإضرارى بإيمانـــــى

لا خير فى الأمر: تُردينى مغبته　　　يوم الحساب إذا ما نُصَّ [1] ميزان

*****

(١) أى: رُفع.

إصرار الداعية

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

هذا هو الداعية.. دائما.. كما حَدَّد ملامحه العالمون:

يؤمن بأن أمراً مّا حق.. فتنشأ من الإيمان به غيرة عليه.. غيرةٌ تَقْوَى بقوته.. وتضعف بضعفه..

لكن.. ما معنى أن إنسانا مًّا يغار على الحق؟

إنه يحس براحة إزاء من يغار على الحق مثله.. ثم يحس براحة أكبر لو كان عاملا به.. وعلى العكس: يحس بالألم إزاء من يُنكره.. ثم بألم أشدّ ممن يُناوئه ولا يعملون به.. ويعنى ذلك: أن الغيرة حساسية فى النفس تقضّ مضجعك. حتى يكون منك نزوع للتدخل المباشر لتغيير المنكر.. حتى بقلبك.

ولقد آمن هذا الرجل.. مؤمنُ آل فرعون.. بالحق الذى جاء به موسى ـ عليه السلام ـ ولكنه كان غريبا فى وطنه.. لم يجد له رفيقا على الطريق.. وإنما كان رفيقه صبره حكمته..

ولقد كان من المتوقع أن ينسحب المؤمن من الساحة قائلا: نصحت فلم أفلح.. وغشوا فأفلحوا..

وكان من الممكن أيضا أن يعجِّل الله تعالى بتدمير فرعون وملئه.. ولكن سنته تعالى مضت أنه: لابد من داعية.. ومعاناه.. لابد من مخاطر وآلام.. يكون من بعدها البعث الجديد.

ولكنْ لله تعالى حكمةٌ هو بالغها.. وللداعية دور ينبغى أن يؤديَه.. إنه لم يشأ أن يترك الجمهور حائرا.. وإنما أعانه على نفسه بمواصلة الموعظة قبل أن يغُره منطق الباطل فى روائه الفاتن..

ومهما يكن من أمر فرعون.. فإنه لا يملك عقول الناس.. وقد يملك أبصارهم زمَنًا حين يَخْدَعُها بالبناء العالى.. لكن نشوة الباطل ساعة.. بينما الحق باق إلى قيام الساعة.

لكن بقاء الحق مرهون بقدرة الله تعالى والذى يدمر الباطل بيده سبحانه ويد المؤمنين.. الذين يخوضون المعركة مع الباطل بما يكافئها من تدبير.. ومنهم ذلك المؤمن الذى يضرب الأمثال الدعاة.. لعلهم يهتدون.. فماذا فعل؟

أولا: رأى الباطل فى شخص فرعون فخورا مزهوا.. مُدِلا بحرصه على هداية القوم إلى سبيل الرشاد.. بل إنه لا يدعو إلا إليه.. دون سواه.. فلما رأى المؤمن القوة الباطشة تحاول فرض رأيها بالقوة.. لم يكن من الحكمة وفى ساعة بلغت منها النشوة ذروتها.. لم يكن من الحكمة مواجهتُه مباشرة بما يُحبِط دعواه.. ولقد كان ذلك منطق فرعون.. كما حكَتْه الآية التاسعة والعشرون من قبل.. ولكن رد المؤمن المتضمنَ هدايته قومَه إلى الرشاد تأخر حتى جاء فى الآية الثامنة والثلاثين والتى نحن بصدد التعليق عليها..

ثم إنه جاء على غاية ما يكون التواضع ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وربما جاز لنا أن نفهم سر ذلك.. ولو بالإشارة إلى ضَرُورة التحكم فى الانفعال.. وعدم نقضِ رأى العدو الغاشم مواجهة.. وفى نفس اللحظة.. فرارا من عقبى هذا التحدى الذى يُظْهِر الطاغيةَ فى صورةٍ من الضعف يَتأبى عليها..

وتقضى الحكمة.. بالإبقاء على النصيحة.. إلى أن يحين أوانها.. وبعد هدوء الأعصاب المتحفزة.. فلعل القلوب عندئذ أن تتفتح لها.. فى الزمان والمكان المناسبين للتأثير.. والتأثر.. وعندئذ يكون احتمال الهداية قائما.

قد يهون العمر إلا ساعة - وتضيق الأرض إلا موضعا.. ولكن الداعية الحصيف لا يُذكِّرهم فقط بأنه يحب لهم الهداية إلى سبيل الرشاد.. فالحب وحده لا يصلح دليلا أمام من ندعوهم إذا لم تكن هناك حركة داخلية فى حنايا النفس.. تُسقط الحواجز المانعة من الإيمان.. وهذا ما فعله مؤمن آل فرعون هنا.. وفيما حكاه القرآن الكريم عنه: ﴿..يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

لقد اكتشف الداعية عمقَ التمرد لدى المدعو المزهو بقوته.. وعقليته! فماذا فعل؟ فعل ما يفعله الدعاة العقلاء الحكماء البصراء:

دَرَسَ حال هذا المدعو. سلط الأضواء. أضواءَ بصره وبصيرته سلطها على كل حناياه وزواياه. فاكتشف سر هذا التمرد وهو الاستغراق فى نعيم الدنيا..

وما دام الأمر كذلك.. وما دامت الدنيا فعلا زينةً.. من شأنها إغراءُ البشر. فلم يشأ الداعية انتزاع المدعو من دُنياه المؤثرةِ. وإعجابِه برأيه.. ولكنه كان واقعيا.. إلى جانب كونه مثاليا:

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ **إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ** ﴾ إنها حقا متاع.. ومن حقكم أن تَمُدُّوا أيديكم لتأكلوا من دنيا خُلِقَت لكم.. لكن ما رأيكم دام فضلكم إذا كان هذا المتاع زائلا.. تذهب نشوته.. لتبقى حسرته؟ إن الدار. التى خُلقتُم لها إنما هى الدار الآخرة.. دارُ القرار. وهى الحيوان.. لو كان الغافلون يعلمون!

ناد ربَّ الدار ذا المال الذى	جمع الدنيا بحرصٍ ما فعل
كان فى دارٍ ســواها دارُه	عَلَّلَته بالمنـــى ثــم انتقل
لم يُمَتَّع بالذى كــان حــوى	من حكام المال إذْ حل الأجل
إنمــــا الـدنيا كـظل زائل	طلعت شمسٌ عليه فاضمحـــل

وهكذا يلخص المؤمن دور الداعية فى تشخيص العلة.. ثم وصف الدواء.. وعندئذ تنتهى مهمته.. ولا يبقى له إلا مجردُ التذكير.. والذكرى تنفع المؤمنين:

فإذا رأيت اليوم شحًا مطاعا.. وهوى متبعا.. وإعجاب كل ذى رأى برأيه ـ فعليك بمَنْهج مؤمن آل فرعون.. الذى وفَّى حين رسم الطريق اللاحب لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا..

وما يزال التذكير بالآخرة سلوى الداعى وفرصةَ المدعو الأخيرةَ إذا أراد لنفسه خيرا.. وحشر نفسه فى زمرة العقلاء.

قال أبو حاتم ـ رحمه الله ـ :

السبب المؤدى للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها: تركُ الركون إليها. مع تقديم ما قُدِرَ منها للعيش الدائم.

والنعيمُ المقيم هو: ترك طول الأمل. ومراقبةُ ورُود الموت عليه فى كل لحظة وطَرْفَة لأن طول الآمال قَطَع أعناق الرجال. كالسراب: أخْلَفَ من رجاه. وخاب من رآه.

فالعاقل يَلْزَمُ تركَها مع الاعتبار الدائم بمن مضى من الأمم السالفة والقرون الماضية: كيف عفَت آثارهم. واضمحلت أبناؤهم. فما بقى منهم إلا الذكر ولا من ديارهم إلا الرسم. فسبحان من هو قادر على بعثهم وجمعِهم للجزاء والعقاب..

قال الشاعر:

كنَّا على ظهرها والعيشُ ذو مهل	والدهرُ يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر ذو التصريف أُلْفَتَنَا	فاليوم يجمعنا فى بطنها الكفن
كذلك الدهر: لا يُبقى على أحد	تأتى بأقداره الأيام والزمن

وإذ يستهوينا عمق إيمان الرجل.. ثم غيرته المشتقةُ من هذا الإيمان.. ثم طولُ نَفَسه فى ملاقاة الباطل.. فإننا لا ننسى الكيفية التى عبر بها عن هذا كله.. إنها مربط الفرس كما يقولون..

ذلك بأن مهمة الداعية لا تنتهى بالبلاغ... فأهم من ذلك... على أىِّ كيفية كان هذا البلاغ؟

وإلا.. فإن الداعية بلا أسلوب مناسب يكون عبئا على الدعوة ذاتها.. لا عونا لها:

قال بعض المربين: [مِنْ أصحابى من أرجو دعوته. وأرفض شهادته!:

أى أنه رجل تقى نقى. ولكنه فى حاجة إلى عقل واع وخبرة واسعة.. وإذن.. فَلْيَلْزم حده.. أو غَرْزه! وليترك الميدانَ لحَفيظٍ.. عليم.. قادر على

أن يكتشف الميدان بكل ما فيه من جبال.. وتضاريس.. ومنعطفات.. بصير بوسائل الكيد لدى الأعداء.. فيُقدِم.. إذا كان الإقدام عزما.. ويُحْجِمُ.. إذا كان الإحجام حزما!]أ.هـ.

أجل.. ما أجمل الصبرَ والحكمة إذا اجتمعا فى قلب الداعية.. أما إذا نَضَب معين الحكمة فلن تغنى عنه النوايا الطيبة شيئا!

ألم تر إلى ذلك الشاعر.. الذى أراد أن يعبر عن حبه ووفائه لممدوحه فصاغ مدحة وحبًّه شعرا بدأه بقوله:

أنت كالكلب فى حفاظك للود.. وكالتيس فى قراع الخطوب؟!

لقد أراد أن يُكَحِّلها.. فعماها بهذا الاستهلال الذى عاد عليه بضد ما أراد.. وصحيح أنه يُنوِّه بالوفاء.. يبلغ منتهاه.. وبالشجاعة بالغة قمتها.. لكن التشبيه.. مُؤْذٍ للشعور.. لقد كان الشاعر يملك من الوفاء لآلئ.. ولكنه قدمها للممدوح فى طبق من خشب!! فلا تسل عما ناله من نَصَب ووصب!!

ونقول أيضا فى أهمية العرض.. والأسلوب: إن ربنا سبحانه وتعالى: ربُّ كل شىء.. ربُّ السماء ورب الكلب أيضا - فهل من الذوق أن تقول ارزقنى يا رب الكلب.. أبدا..

إن عليك أن تكون راقيا فى تعبيرك.. راقيا فى ذوقك فتقول:

ارزقنى يا رب السماء!!

ألا.. ما أجمل القلوب.. الصافية: فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذه للشاربين وأنهار من عسل مصفى.. ولكن عليها أن تذيق المدعو هذه الطعوم.. فإن عجزت فإن أمرها على ما يقول الشاعر:

ولم أر فى عيوب الناس عيبا   كنقص القادرين على التمام.

*****

من عقبات الطريق

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠] .

مع أن «مؤمن آل فرعون» كان واحدا.. ومع أنه لم يكن يملك إلا الكلمة الطيبةَ سبيلا إلى قلوب قومه.. لكنه مع تَفَرُّده استطاع وبكلمته أن يَصدع قلوب المعاندين بالحق.. وهى نتيجةٌ تُضاعفُ من آمالنا فى قدرة الداعية المسلم.. الملتزم بالإسلام على أن يحقق نصرا.. قد يتأخر.. لكنه آت لا ريب فيه.. وفى البحر المتلاطم.. توجد اللآلىء ولسوف تجد فى المحارة المتآكلة.. لؤلؤة! ولقد أرسلت الكنيسة العالمية من«روما» شابا إيطاليا.. حديث التخرج فى الجامعة.. أرسلته إلى إحدى القبائل الكينية الكبيرة.. فماذا فعل؟ عندما وصل إليهم لم يتحدث إليهم بالإنكليزية أو السواحلية.. ولقد أدهش القوم هناك.. لما بدأ يتحدث إليهم بلغتهم!

وهو موقف يعكس ذكاء غيرنا فى اقتباس ما فى دعوتنا من حكمة فى احتواء النفوس.. بواسطة شباب.. مُدَرَّبٍ.. ذكيٍّ.. مغامر.. هذه الحكمة التى أرسى مؤمن آل فرعون دعائمها حين خاطب قومه باللغة التى تصل إلى أعماقهم.. فى عمليةِ تنْحية الرواسب المانعة من الإذعان..

إن الانغماس فى لذات الدنيا يُشكِّل أكبر عقبات الطريق.. وهاهو ذا يأخذ بأيديهم.. إلى دار القرار.. فرارا من دار البوار..

فما لهم لا يؤمنون.. وإذا تليت عليهم الآيات لا يستجيبون؟

لو كانوا فلاسفة.. يُحكِّمون الدليل.. فهاهو ذا منطقُه يحمِلُ على اليقين فرارا من التخمين؟

وإن كانوا من العوامّ.. فحقيقة ما يدعوهم إليه واضحة وضوح الشمس.. وإن كانوا فنانين أو شعَراء أو أدباء.. فهاهو ذا منطقه الآسر.. يفيض عذوبة.. وجمالا.

فهل يشك أحد فى بساطة هذا المنطق وقوّته معا:

﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ ألا ينطق كل شىء من حولنا بهذه الحقيقة الناصعة التى تفرض نفسها؟

أؤمل أن أحيا وفى كل ساعة تمر بى الموتى تُهزّ نعوشها

وهل أنا إلا مثلهم غير أن لى بقايا ليال فى الزمان أعيشها

وحين يدعوهم الداعى إلى أن يشدُّوا رحالهم إلى الدار الآخرة.. فإنه يوضح لهم منهج السير:

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إنها الرحمة تظلل الركب الفارّ إلى ربه سبحانه.. فجزاء السيئة.. سيئةٌ مثلها.. فلا مجال هنا للعواطف الجامحة فى حساب الآخرين الذين يتعاملون بقانون البشر فتكيل بالصاع صاعين!

وتظل الرحمة الإلهية تنشر ظلها حين يُجتَزأُ الحديث عن السيئة فى كلمات خاطفة..ليطول عند الكلام عن الصلاح.. والجنة.. والرزق الحلال.. وهى محاولة من الداعى يريد بها إدخال المدعو فى ظل ظليل ترّطبه أنداءُ هذه الرحمة السابغة..

إذن.. فلا مكان فى قلب الداعية لمعانى التشفى.. وحب الانتقام لأن طبيعته أوّلاً: غيرُ صالحة لممارسة هذا التّرَق..وثانيا لمصْلحةِ الدعوة فوق ذلك.

ذلك بأن أسلوب التشفى.. لونٌ من العناد.. ولسوف يجيئك الرد عنادا.. وعنادا مضاعفا..

إنهم أطفال كبار. وفيهم من الطفولة عنادها.. الذين هولون من إثبات الذات.. ولفت النظر..

ولقد كان المؤمن حريصا على التعبير عن ذلك الود.. مؤكدا أنه محب لهم.. ولا يكرههم.. طبعا.. وسياسةً فى نفس الوقت:

إن الكراهية نوع من الاهتمام بالآخرين.. وعلينا أن نَرُوضَ قلوبنا فلا نكلفَها بكراهتهم شططا.. ونُرْهقها من أمرها عسرا.. بل إذا كان ولابد من مشاعر.. فلتكن مشاعر الاستخفاف - وفى لحظة الضيِّق - لِنُشعرهم بأنهم فى حسابنا أموات. أموات وإن كانوا على الأرض أحياءَ!

ثم إنها فى نفس الوقت تكاليفُ المروءة التى تعطى ولا تأخذ..

لَمَّا قَدِم حاتمُ الأصمُّ إلى الإمام أحمد قال له الإمام:

أَخْبِرنى كيف السلامة من الناس؟ فقال حاتم: بثلاثة أشياء: تعطيهم من مالك. ولا تأخذُ من مالهم.. وتَقْضِى لهم حقوقهم.. ولا تطالبُهم بحقوقك. وتصبرُ على أذاهم.. ولا تؤذِيهم..

فلما قرر الإمام أنَّ ذلك صعب جدا. قال له حاتم: ولعلك.. لا تسلم!!

فانظر إلى طاقة التحمل التى يجب أن يأخذ بها المسلم الراغب فى السلامة نفسه: أن يبذل من ماله.. ومن أعصابه.. ما تنوء بحمله الجبال.. فكيف بالداعى إلى الله وهو رائد القوم وإمامهم؟

إنه هو الذى يلقى العدو.. بالوجه الطلق.. والمنطقِ العذب.. لتكون الطلاقة والعذوبة فى ميزان حسناته قبل أن تكون وسيلة من وسائل دعوته.. وما زلتُ أذكر ذلك الرجل الطيب الذى سلم علىّ.. لكنه أدار وجهه فى تحية من الدرجة الثالثة إن صح التعبير..

ولم أشأ أن أعكِّر الجو.. ساعتئذ لأننى حريص على ثروة الرجال.. والأتقياء منهم بخاصة.. ولكننى أرسلت إليه قائلا:

كان ﷺ إذا مر بأهل البقيع سلم عليهم. ثم استقبلهم بوجهه الشريف.. وهم تحت أطباق الثرى... أموات.. فكيف بالمؤمن الحى.. يَمُد يدَه إليك.. فلا ترد التحية حتى بمثلها.. وقلت لنفسى: كثيرٌ أولئكم الدعاة الطيبون:

إنهم كما قُلْنَا يملكون خلف ضلوعهم قلوبا كأنها أنهار اللبن.. أو من الماء

الطهور والعسل المصفى.. ويبقى عليهم أن يَمْتَحُوا الناس منها: شِبَعًا.. وريا.. ولحما طريا..

ولقد كان من حكمته تعالى ورحمته أن أعان الإنسان على غروره الذى قد يستبدّ به يوما.. بما بث فى الكون من دروس على لسان الطير والحيوان والحشرات.

لقد علَّمتنا النملة درسا فى الذوق والأدب العالى.. والتماس الأعذار للناس حين خَوَّفت النمل من سليمان ـ عليه السلام ـ وجنوده.. بقولها فيما حكاه القرآن الكريم.. ﴿ **لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ أى أنه حتى وإن دَعَسُونا.. فمن حيث لا يشعرون!

والغراب.. يبحث فى الأرض عن مكان يوارى فيه سوأة أخيه.. والهدهد: يعلم البشر أنَّ حقيقة التوحيد فطرةُ الكون كلّه.. أفلا يتحمل الدعاة نصيبهم من دراسة آيات الله فى الكون.. إضافة إلى ما عَلِموه نِظريا.. ليستجمعوا عدة الدعوة.. وأهليتها؟

لقد سبَقَنَا علماءُ الكونياتِ هناك إلى هذا النظر الدقيق.. فكان ما كان من تقدُّمٍ مذهل:

قبل أن يمخروا بالسفن عباب الماء.. درسوا قانون الطفو.. وقبل أن يُحلِّقوا بالطائرة فى أجواز الفضاء.. درسوا سر الطيران لدى الطير.. ثم كثافة الهواء.. فكان ما كان..

إن الجبين المقطَّب.. والنظرة الغاضبة سوف تسد الطريق أمام المنطق مهما كان.. جادا. وصارما..

ولئن كان للجِد.. وللصرامة.. زمانُها.. إلا أنها ليست القاعدة.. والإسلام ليس ضعيفًا حتى نَسنُده بقوة الدفع لدينا..

لقد كان للنصرانية معاهدُ متخصصةُ لإعداد المبشرين المنَفِّرين.. ولكن الإسلام اعتمد على قواه الذاتية..

وفى طليعة هذه القوى الذاتية: تبسُّمُك فى وجه أخيك وهو صدقة لك..

لقد أعلن القبط في مصر إسلامهم.. بالحكمة.. والقدوةِ الحسنة التي جَلاَّها أسلافُنا رضوان الله عليهم..

ولقد كان من وفرة ثمارها.. وآيات ازدهارها أنَّ راهبا قبطيا أعلن أَسَفَه لأن المسلمين لم يستعملوا القوّة.. لماذا؟

يقول الراهب: ليتهم استعملوا القوَّة.. إذن لتمسك الأقباط بدينهم عنادا! لكنهم لم يفعلوا. ونقول نحن: ولن يفعلوا!

لقد استعملوا الحكمة بدل القوة.. واللِّين.. مكان الشدة.. ولم تكن قصاراهم أن يهدموا.. وإنما مهمتم أن يقدموا بديلاً من المناهج يسير على هديها الراغبون.. وهو واحد من دروس الآية الكريمة التي معنا والتي تُلَخِّصُ منهج الإصلاح - على لسان المؤمن - في أمرين:

الإيمان.. والعمل الصالح.. وهما معا طريقُ السيادة.. والسعادة.. إنها قوة الباطن.. بالإيمان.. وقوة الظاهر بالعمل الصالح:

وبهما معا يواجه الناس والأحداث:

إن الإيمان يقوِّى النفس.. لتكون قادرة على تحمل الشدائد بل ومُغَالبَتِها.. ثم يقوى العقل: ليستوعب السنن الكونية والاجتماعية.

وقوة الظاهر تَعْنى: قدرة الجسم على النضال تحت إشراف العقل.. ولقد واجه مؤمن آل فرعون قومه بهاتين القوتين معا.. والدعاةُ اليوم مطالبون أن يَتَرَسَّموا خطاه.. فإن هم فعلوا مثله فكانوا أساة رحماء.. رزقهم الله تعالى مثلما رزقه:

نعمة التوفيق.. وأَنْعِم بها على درب الدعوة من رفيق.

*****

مفارقة عجيبة

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ. لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٣] .

إنه لَشَىءٌ مؤلم حقا: أن تقول الحق لمن لا يصدِّقه.. وأن يقول هو لك ما لا يصدَّق!.. إنه ذلك المعتوه الذى عناه الشاعر بقوله:

أقول له عمرا فيسمعُ خالدا ... ويكتبها زيدا ويقرؤها بكرا!

فإذا كان ذلك العابثُ من قومك.. كانت مرارة الموقف أشدَّ:

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند

ولك أن تستشعر عُمقَ المرارة.. وسَعَتَها أيضا حين تتأمل منطقَ المؤمن هنا وما يحمل من مفارقة عجيبة: ﴿..مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

أدعوكم إلى الوفاق.. وتدعوننى إلى الشقاق.. أدعوكم إلى الأمل.. وتدعوننى إلى اليأس.. أدعوكم إلى اليقين.. وتدعوننى إلى الشك والتخمين

إن حديثكم ـ يا قومى ـ عن السعادة لم ينقطع.. لكنكم فَشِلتم فى حصول سعليها.. لما جاءهم من يد لهم عليها.. عادَوْه.. بل وآذوه.. بينما هو من لحمهم ودمهم!

هل هى عقدة الأجنبى التى تبسُط اليد للخير يأتى به الغريب.. بينما ترفض أضعاف هذا الخير لو جاء به حبيب؟!

ومع لَسْعَةِ المرارة وبُعْدِ الشقة بين الداعى والمدعو إلا أنه يرخى لهم حبل.. فى حوار ودود منصِف.. فلعل وعسى:

وهكذا يظل الأمل يومض فى قلب الداعية.. حتى فى بحر الظلمات..

وإلا.. فهل هناك أمل فى الوفاق مع قوم يَعْتَسُونَ من الضلال ذروته؟

﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾.

إن موقفَ الداعية هنا بالغٌ نهايةَ الحساسية:

فهو لا يخاطب مؤمنين عصاة.. ولكن مهمته أن ينشئ فى أفئدتهم عقيدة التوحيد.. ولأن الثمرة المرجوة عظيمةُ الأثر فى حياة البشر فلابد من حكمة فى الأسلوب تكافئها..

وهذا ما فعله المؤمن.. وظهر ذلك فيما يلى:

١ - لم يَصُبَّ عليهم غضبه فى هجمة تجرح إحساسهم.. ولكنه كان موضوعيا: عَرَض نقطة الخلاف بينه وبينهم ثم ناقشها بهدوء:

لقد هزَّ كيانَهم بهذه المفارقة: ﴿أدعوكم إلى النجاه وتدعوننى إلى النار﴾ فلعلهم لغرابتها أن يُفِيقُوا..

ثم واصل حواره كاشفا عن وجه الحق فى دعوته:

فأنتم تدعوننى إلى الكفر بالله.. وأن أتخذ له نِداً لا أعلمه ولا أعرف عنه شيئا.. كل ما أعلمه بل أومن به: إنما الله إله واحد.

وأنا أدعوكم إلى المستحق للعبودية بما اتَّصَفَ به سبحانه من صفات الكمال:

فهو العزيز.. الغالب.. الذى يُمْهل لا يُهمل.

ثم هو الغفَّار.. الذى يبسط يده سبحانه بالليل والنهار ليتوب المسىء عائداً إلى ربه تعالى.

وأين منه سبحانه وتعالى ما تدعوننى إليه؟

إنه حقا.. وباليقين.. لا دعوة له فى الدنيا ولا فى الآخرة:

أ - فهو لا يستحق أن يدعى إليه.

ب ـ ثم هو لم يدعُ أحدا زاعما لنفسه هذا الشرف العظيم..

جـ ـ وجَرِّبوا أنتم الآن.. فادعوه.. فهل يستجيب لكم؟ بالطبع لا..

فأى الفريقين أحق بالاتباع.. وأى الفريقين أحق بالأمن؟

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾
وهو ما أدعوكم إليه: الإيمان والعمل الصالح..

وعن هذين الطريقين.. تصلون بى وبكم إلى نهايتين سعيدتين:

الزحزحة عن النار.. ودخول الجنة.. **﴿ومَنْ زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾**.

وقد سألتُ نفسى أمام الآية الكريمة.. لِمَ لَمْ يقل سبحانه: وأنا أدعوكم إلى العزيز الجبار.. واسم الجبار أليق فى مخاطبة المتجبرين فى الأرض.. وقلت لنفسى: إنها قاعدة الدعوة الكبرى.. والتى يجب أن تكون حاضرةً فى ذاكرة الداعية.. وهي: التمسُّكُ بخيط الأمل مهما تلبد الجو بالغيوم.. ومن هنا جاء [الغفار] ليظل باب الأمل مفتوحا.. حتى والمعركة حامية الوطيس..

ويظل المؤمن وفيا لمبدئه.. لمروءته.. حين يُشعرهم بأنه معهم فى معمعان الخطر غيرُ معزول عنهم.. وأنه معهم محكوم بسنن إلهية لا تتخلف أبدا: ومنها: **﴿وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾**.

٢ ـ ولقد تم ذلك عن طريق أسلوب الحوار.. وما يثمره من فوائد منها:

أن الحوار يجعل من المستمع طرفا ثالثا.. يرى.. ويسمع.. ثم يكون شريكا فى صنع القرار حين يوازن.. ثم يختار.

٣ ـ استَعْمَل المؤمن فى خطابهم أسلوب المقابلة أو المقارنة.. لعلهم يفهمون فيؤمنون.. والضدُّ يظهر حسنه الضدِ:

فقد ذَكَر: الدنيا والآخرة.. والصالح والطالح.. والداعىَ إلى الجنة والداعى إلى النار.. ثم ما يترتب على ذلك من جزاء.

٤ـ ولقد شخص العلة.. فأهاب بالعقلِ أن يستيقظ.. وبالقلب أن يتحرك فتحاً الأبصار والبصائر على مجموعة من العلل المانعة من الشفاء فلعل المريض

أن يُشْفِقَ على نفسه بَعْد أن عرف الطريق إلى هذا الشفاء وذلك ما أشارت إليه الآياتَ الكريمة فى قوله تعالى : ﴿إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب﴾.

﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾.

﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾.

﴿وما كيد الكافرين إلا فى ضلال﴾.

﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾.

ويعنى ذلك: أنهم لو عدلوا.. فلم يظلموا.. ثم اعتدلوا فلم يُسرفوا.. ولو أنهم صدقوا.. فلم يكذبوا.. ثم تواضعوا فلم يستكبروا.. لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم.

ألا إنَّ الإحاطة بأسرار النفس الإنسانية يُعين على خطابها باللغة التى تفهمها.. وليس هناك أعلمُ بالإنسان من خالقه سبحانه وتعالى.. ولقد جاء حديثه تعالى على لسان مؤمن فرعون.. جاء حديثا حَسَنًا لمن وعى:

ومن صور ذلك الحسن أن يحاول الداعى دراسة المدعو دراسة مستأنية واصلة به إلى أعماقه..

إنّ اختلاف ألوان الناس يحتم اختلاف لغاتِ التخاطب معهم:

فقد يكون المدعو واقعا تحت ضغوطٍ نفسية مفروضة عليه.. وتشكل حاجزا نفسيا.. يَقفُ كالجدار المانع من وصول الموعظة.. ومهما كنت مخلصا فلن يمنحك سمعه ولا قلبه.

وعندئذ.. فلو استطاع الداعى إسقاط هذا الحاجز النفسى.. أعنى نقْضَه.. وعلى المدى الطويل حجرا.. حجرا. لكان أجدى. بَدَل اقتحامه لينهار!

فإن الغبار عندئذ سيغبش الجو.. ويشوش على السمع.. فلا يكون الجو مهيئا للاهتداء.

وتلك لمحة من لمحات التوفيق فى أسلوب مؤمن آل فرعون والذى صار به فى مجال الدعوة مدرسة لها سَمْتها ولها خصائصها التى غالى بها المتصفون من

العلماء ومنهم ابن الأثير الذى علّق على حكمة المؤمن فى قوله الذى حكاه عنه القرآن . . ﴿أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله﴾ . . الآية

قال ابن الأثير: [ما أحسن هذا الكلام وألطفه: فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التّقسيم فقال:

لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا. فكذبه يعود عليه. ولا يتعداه. أو أن يكن صادقا يصبْكم بعض الذى يعدكم. إن تعرضتم له.

وفى هذا الكلام من حُسْن الأدب والإنصاف ما أذكره لك فأقول: والكلام لابن الأثير: إنما قال يصبكم بعضُ الذى يعدكم. وقد علم أنه نبىٌّ صادق. وأن كل ما يَعِدُهم به لابُدَّ أن يصيبَهم كلُّه لا بعضُه. . لأنه احتاج فى مقاولة خصوم موسى عليه السلام أنْ يسلُك معهم طريق الإنصاف. والملاطفة فى القوْل ويأتيهم من جهة المناصحة ليكون أدعى إلى تسكُونهم إليه. فجاء بمَا عِلم أنه أقربُ إلى تسليمهم لقوله. وأدخلُ فى تصديقهم إياه. فقال: ﴿وإن تك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم﴾. وهو كلام المنصف ،ذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يَعِدُ بِهْ.

ولكنه أردفَ بقوله: ﴿يصبْكم بعض الذى يعدكم﴾ . . ليهضم بعض حقه فى ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام مَنْ أعطاه حقه وافيا. فضلا عن أن يتعصب له. . وتقديمُ الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه بَرْطَلَهم فى صدر الكلام بما يزعمونه لئلا ينفروا منه] أ.هـ.

إنها كالبرطلة. . كالرشوة. . ولكنها الرشوة لغةً. . لا شرعا. . وإذا قالوا: البراطيل تنصر الأباطيل لأنها كالبرطيل. . كالمِعْوَل: يُستَخْرَجُ به ما استتر. . فإن الموقف هنا مختلف جدا:

فقد قال ابن الأثير: كأنه برطلهم. . بما أوهمهم من هَضم موسى عليه السلام بعض حقه وصولا إلى استمالتهم. . وما أحوجنا إلى دعاة. . يتوددون. . يبرطلون. . كيف؟ بالعاطفة الرقيقة. . تسرى فى قلوبهم عينًا زُلالا. . ثم تجرى على ألسنتهم سحرا حلالا. . وفى وجوههم صدقا وجمالا.

*****

من مظاهر العناد

يقول الله تعالى فى سورة غافر:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٤، ٤٥].

كان آل فرعون من الهُدى الوافد على يد المؤمن [كانوا قطعة من النار: لا يستقيم وُدهم. ولا يوفون بعهدهم] [غافر: ٤٤، ٤٥] .

ولَطَالما أتْعَبُوا الداعية.. وكانوا معه كالبعير: إن أثقلت عليه صاح. وإن خففت عنه صاح.. لا تدرى أين رضاه فتجلبه.. ولا أين ما يُسخطه فتتجنبَه!

وما ابتُلِىَ الحكماء على مدار الزمان بمثل الحمقى..

فالأحمق[إذا أعرضت عنه. اغتم. وإذا أقبلت عليه. اغتر. وإن حَلُمتَ عنه. جَهِل عليك. وإن جَهِلتَ عليه حَلُم عنك.. وإن أسأت إليه.. أحسن إليك.

وإن أحسنت إليه.. أساء إليك.. وإذا ظلمته.. انتصفت منه.. ويَظلمُك إذا أنصفته] وهكذا قال الحكماء.. ومثلَ قولهم قال الشعراء:

لى صديق يرى حقوقى عليه ... نافلات. وحقُّه كان فرضا
لو قطعتُ الجبَالَ طولاً إليه ... ثم مِنْ بَعْدِ طولها سِرت عَرضا
لرأى ما صَنَعتُ غيرَ كبير ... واشتهى أن أزيد فى الأرض أرْضا

وعنْدمَا يصل الأمر إلى هذا الحد يجب أن يتوقف الحوار: أو يُعلَّقَ كما نقول اليوم: لقد بلَّغ الداعية رسالته أكمل ما يكون البلاغ.. بينما الباطل مصرٌ على ضلاله واحتياله.. لا ينفذ إلى قلبه شعاع من نور الحق..

ذلك بأن استمرار الحوار والحالة هذه يعنى أنك تسوق إلى «الحنضلة» ماءً زُلالا.. مع أنها لن تزداد به إلا مرارة!

وهذا ما فعله «المؤمن» فى قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

إنه يريد أن يقول لهم: ستذكرون قولى.. ولكن بعد فوات الأوان.. وستندمون.. ولات ساعة مندم.. تندمون حين ترون العذاب.. والحرمان من الثواب معا..

ولكنه حتى فى لحظة الوداع يظل وفيا لمبدئه.. فلم يُثرهم عليه.. حيث لم يقل إلا: ستذكرون.. ولم يواجههم بالندم.. واليأس.. والعقاب.. فما زالت فى القلب الكبير ذُبالة من الأمل.. تترنح أمام إعصار من عناد القوم.. لكنه يستمسك بها!..

وحين يُخفى الداعية آلامَه.. فإنه يبث منطقه من حكمته ما يشير.. ومن بعيد إلى ما يريد:

فلم يقل لهم سوف تذكرون.. وإنما ستذكرون.. بالسين وما تشير إليه من تذكُّر وشيك الوقوع..

ثم إنهم.. سيذكرون.. هكذا فجأة وبلا تكلف.. يذكرون.. ولا يتكلفون.. وسيهجُم عليهم الإحساس بفداحة ما فعلوا.. وخطرِ ما أقدموا عليه من عقاب..

ثم تذكرون.. جميعا.. ويحتويكم الندم جميعا.. وهكذا رفاق الدنيا.. يتلاومون عندئذ ولا يتناصرون.. فقد فاتهم القطار.. وطار.

لقد هَرَبْتُم بالأمس من أنفسكم... جَمحَ بكم الهوى.. فى الأرض حيارى.. وتركتم أنفسكم.. عقولكم.. كلٍّ مداركِكم.. وغدا ستعودون إليها بعد رحلة العذاب.. لتواجهوا الحق المبين.. وعند جُهَينة الخبر اليقين:

كأن لم يكن بين الحجُون إلى الصفا　　أنيس ولم يسمر بمكة سامــــــر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنــــــــا　　صروف الليالى والجدودُ العواثُر

وعندئذ يُسفِر الداعية عن مشاعره النظيفة.. حين لا يشمت بأعدائه.. وذلك قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ إن الكبار فوق الشماتة.. ولكنهم فقط يُنبهون إلى مواطن العبرة. ليعتبر الآخرون.. حتى لا تتكرر المأساة.

وهو يفوّض أمره إلى الله وحده.. وفى ساعة العسرة.. بعد أن استنفد كل وسائله البشرية: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ.

[هو بصير بهم تعالى وتقدّس. فَيَهدى من يستحق الهداية. ويُضل من يستحق الإضلال. له الحجة البالغة. والحكمة التامة. والقدرُ النافذ] أ.هـ.

فى هذا التفويض ما فيه من عمق التوكل على الله تعالى.. استصغارا لكيد المستكبرين: فلا أمل إلا فيه.. ولا تفويض إلا إليه.. ولا توكل إلا عليه.. ولا استعانة إلا به..

ثم فيه من رائحة التحدى.. تحدى الباطل.. كأنما يقول لهم:

إن الله بصير بالعباد: يعلم حالى.. وحالكم.. وحتى لو سولّت لكم أنفسكم أمرا.. وسلّطكم تعالى علىّ.. فالأمر الواقع بى.. بحكمته تعالى وحده.. وقدرته وحده.. ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾.

لقد حاول المعتدون أن يَبْطشوا به.. وكما تقول بعض الروايات.. إنه هرب منهم فى شعاب الجبال.. فتعقَّبه رجال فرعون.. وتكفَّلَتِ الوحوش والسباعُ بالدفاع عنه..

وهكذا: عندما يكتمل الإيمان.. وعندما يرتفع المؤمن من درجة الصبر إلى رتبة: الاصطبار.. يجىء الانتصار خاتمة المطاف.. ومن قبلُ جندُ الله تعالى.. حتى السباعُ والوحوش.. التى تغضب للحق حين يتنكر له الإنسان.

ولقد كان ذلك المشهد وحده لونا من العذاب المعجل والذى حاق بآل فرعون فى الدنيا.. قبل أن يحيق بهم فى الآخرة.

ولاحِظْ أن العذاب لم يَحقْ فقط بفرعون وحده.. وإنما أحاط بآله جميعا.. هؤلاء الشياطينُ الخرس الذين عرفوا الحق.. ولكنهم مكّنوا فرعون من أنفسهم بالسكوت.. فكانوا مثله ظالمين.. ماكرين.

وتلك هى السلوى.. وذلك هو العزاء لكل داع إلى الله يُسَخِّر ملكاته وتجاربَه فى معركته مع الوثنية.. احتسابا..

ثم هو الوعيد لكل مجادلٍ فى آيات الله.. متكبرٍ جبار.. بأنَّ نهايته من نفس النوع.. وسوف تَدْهَمه.. وإن طال به المدى. ونقول للأقليات الإسلامية بين الكثرة الباغية: إذا تلبدت السماء بالغيوم يوما.. ثم غَشَّاها شحوبٌ يوحى

باليأس.. فإن نظرةً إلى الطبيعة من حولك تجدد فى نفسك الأمل فى الفرج.. فإذا رأيت النجوم شاحبة.. فيعنى ذلك أن الفجر قادم.. وهكذا يقول الأدباء.. وهو ما يقوله الشعراء:

تعزّ..فإن الصبر بالحرِّ أجمل	وليس على ريب الزمان مُعوَّل
فإن تكن الأيام فينا تبدلت	بنعمى وبؤس يوالحوادث تفعل
فما ليَّنت منا قناةً صَليبة	ولا ذلَّلَتنا للذى ليس يجمُل
ولكن رحَلْناها نفوسا كريمة	تُحمِّل مالا تستطيع فتحمِل

فإذا أعلن هذا الإباء الإيمانى عن نفسه فى شخص مؤمن آل فرعون.. فى الوقت الذى يبلغ الغرور مداه على الجانب الآخر.. يكون السقوط عندئذ أكثر دويا...

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

لقد تكبر فرعون حتى ما تَسَعُه ثيابه.. ولا يحتويه جلده.. وجعل منه الإعلام المادى المزور كُرَة منفوخة.. ولكن.. وعندما حان قطافه.. عندما أينعت رأسه.. ماذا حدث؟

ثُقبت الكرة المنفوخة ـ كما قيل ـ ثقبت بإبرة.. فصارت جلدة ميتة.. وسقط كماتسقط الضبع الخبيثة التى لا تأكل إلا لحوم الموتى.وليس هذا فقط..

بل إن فرعون.. فى دوامة الخطر المحدق به.. لا يقول ـ كما أشار العلماء ـ لا يقول آمنت بالله.. وإنما يقول:

﴿لا إله إلا الذى آمَنَت به بنو إسرائيل﴾ ورضى أن يكون تابعا لهم ذليلا.. فشرب من نفس الكأس.. وبعد أن لعب برأسه الأمل الكذوب.. فإذا السراب.. عذاب.. العذاب الذى يحتويه.. وكل من أمل فيه:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ. فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف٥٤ ـ ٥٦] وتلك

سنته تعالى فى الظالمين نُذكِّر بها المؤمنين الذين يواجهون الطغيان.. فى بلاد لا تدين بالإسلام.. نذكّر.. والذكرى تنفع المؤمنين:

كم رأينا من أبلجَ ذِى عتوٍّ ... لم تَهَبْه المنُونُ. وهو مهيب
بينما يَبْتَنِى المدائنَ والأوطانَ ... إذ بَاكَرتْهُ الخطوب
فتردَّى ولم تجبه جنود ... حوله حُضَّر لأمرٍ ينوب
بل حَثَتْ فوقه التراب ولم ... تَصرِفْ رَدَاه إذْ يهتف المكروب
وينادونه وقد صُمَّ عنهم ... ثم قالوا وللنساء نحيب
ما الذى عاق أن تُحِير جوابا ... أيها المقول الأديب الأريب
إن تكن لا تطيق رجْعَ جواب ... فلقد ما تُرى وأنت خطيب
ذو عظات وما وَعظت بقول ... مثلِ وعظ بالصمت إذ لا يجيب[1]

*****

(١) صالح بن عبد القدوس.

حتى تفتح النفوس أبوابها

ذات يوم.. سئل رجل الفكر المتحضر «نهرو»: أنت رجل الفكر المتحضر.. فكيف تستسيغ أن تتمثل صفات الألوهية فى بقرة؟! فقال: إن العقيدة كالزوجة فى - نظره طبعا -: قد تكون دميمة.. ولكنها فى نظر زوجها أجمل النساء!

فانتظر ماذا ترى: مفكر.. عالمى.. يناوشه ومن أعماقه البعيدة.. هتاف التوحيد.. لكنه يتجاهله راضيا بعقيدة باطلة أثخنتها البراهين طعنا..

وحين واجه مؤمن آل فرعون قومه بالحق.. وجد نفسه أمام هذا الطراز: أمام سِنْدِيَانة ضخمة.. لا تسقطها المعاول.. بالضربة الأولى.. ولا بالضربة المائة!... فهو من قومه.. أمام أنموذَجين:

فرعون: قمة الباطل يَدُلُّ على غبائه.. بدعوى الألوهية.. وناسٍ فى فلكه يدورون. وإذا كان كُفْره ابتداء.. غباءً منه.. فأشدّ منه غباء أولئك الذين يقلدون فيخسرون بالتقليد حاضرهم ومستقبلهم.

ومن شأن هذا التواصى بالباطل أن يحيى الشعور الإيمانى الدفين على الجانب الآخر بعد أن كان خاملا.. غائبا.. فى محاولة لإصلاح ضمائر خربة لا ترجو لله وقارا.. دائبة فى هدم الشريعة ليلا ونهارا..

ومن شأنه أيضا أن يثير العقل.. ليستوعب الموقف جاعلا من الذكاء وسيلته المثلى فى مواجهة المواقف الصعبة..

إنك - حين تدعو - المؤمن العاصى إلى الطاعة.. فما أسهل المهمة.. لأنك تخاطب - كما قال العلماء - رجلا.. ملُولا.. كسولا.. يحب نفسه.. فكان سبيلُك إلى إقناعه: أن تهز منه الوجدان.. ليصحو..

أما إذا كنت تدعو إلى التوحيد وثنيا.. فإن الموقف يختلف.. والسِّنديانة الضخمة لا تُقتلع.. وإنما سبيلنا إلى اقتلاعها.. أن تدور حولها.. وعلى المدى الطويل.. فلعل محاولاتنا المكرورة أن تجتثها من الجذور.. وهو الدرس الذى نتعلمه من «مؤمن آل فرعون»..

ولعل الحق سبحانه وتعالى عندما ضرب هذا المؤمن مثلا للداعية الحكيم كان يلفت أنظارنا إلى ضرورة الوعى بحقيقة المعاندين. . الذين يفرض علينا عنادهم. أن نطيع الله فيهم بأساليب أخر. تقتلع الشجرة الخبيثة من جذورها. . وعلى مراحل وربما جاز لنا أن نقول «بلغة العصر» لقد كان مؤمن آل فرعون مدرسة فى الدعوة: تَعَلَّمْنا بين يديه دروسا فى حسن التعامل مع النفس لعلها أن تسلم لنا زمامها. . ففى النفس مشاعر: الحياء. . والرجاء. . والخوف. .

وفيها كذلك نهم بالدنيا ومناعمها. . وجنوحٌ إلى حسن السمعة. . وحب السلطان. . فلماذا لا نحاول قيادة المعاندين من هذه الدوافع. . لنبدأ رحلة الكمال بالخطوة الأولى على الطريق الطويل؟

ألم تر إليه قد أثار فيهم مشاعر الحياء. . عندما ذكرهم بالنِّعم؟ ثم شعور الخوف لَمَّا أزعجهم بالنقم؟ ثم كيف أثار فيهم مشاعر القلق على سلطان عريض. . ودنيا مؤثرة توشك بالطغيان أن تتفلت من بين أيديهم؟

كل أولئك يحملنا على أن نتعلم. . مُكَرِّرين المحاولة ـ مسترشدين بهدى القرآن الكريم فى هذا المجال. . فلعنا أن نصل بالموعظة إلى الأعماق. . متى أحَطْنا خُبْرا بأسرار النفس. . هذه النفس التى سوف تفتح لنا مغاليقها عندما نأتى البيوت من أبوابها. . ومن هذه الأبواب: التلطف بالمخاطب . .

ونقرأ فى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣] .

ـ فالله تعالى يعاتب رسوله ﷺ. لَمَّا أذن لقوم فى التخلف. قبل أن يتبين صدقهم فى الاعتذار. فخاطبه تعالى. . مستفتحا خطابه سبحانه بما يؤنس رسوله ويَذْهب بوحشته. . وإن بقى العتاب قائما. .

لقد كان ﷺ من رقة المشاعر. . والخوف من الله تعالى فى الموقف الأسنى. . من أجل ذلك يتلطف به تعالى فلا يقول له ابتداء: لم أذنت لهم؟

ولو فوجى بها ﷺ لا نْصَدع قلبه من فرط الإحساس بالألم.

فكان من رحمة ربه تعالى به ورأفته أن بشره بضمان العفو أولا: عفا الله عنه. . ذلك لتنبسط نفسه ويتحمل القلبَ رهبة الموقف وضغوطه. . ثم لينهض

من جديد إلى مرضاة ربه تعالى كالعهد به: بالرأى السديد والموقف الرشيد. . مدركا ذلك الدرس المفيد وهو:

أنه [ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا، فإن الخُلَّص منهم يبادرون إليه، لا يتوقفون على الإذن فيه، فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف عنه].

﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون﴾.

ومن مداخل النفس مناداة المدعو بلقب تكريم وتشريف وهو موقف يأخذ التلطفُ فيه معنى الاستعطاف وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ. هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤ ـ ٦٦] .

والقصة: أن اليهود والنصارى اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا فى أمر إبراهيم عليه السلام. فقالت اليهود: كان يهوديا وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيا. . فنزلت آية **﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا..﴾** ثم جاءت على هذا النسق العام الذى يلزم أهل الكتاب كلمة التقوى:

ولاحظ أن الخلاف حول أخطر القضايا على الإطلاق. . وهى قضية التوحيد. . وإطراح عبادة الأشخاص. .

وأن طرف القضية من كان على الحق المبين: محمدٌ ﷺ. . ومع ذلك. . فإنه لا يجد غضاضة فى استعطاف القوم. . حين يناديهم بلقب تشريف وتكريم: **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾**.

وكأنما يقول لهم: يا أقرب الناس إلىّ. . يا أبناء العم. . يا أيها المثقفون التقدميون ـ إن صح التعبير ـ ومن شأن هذا الاستعطاف أن يطرق باب

القلب.. ليُفْتَح لك.. فإذا أنت وجها لوجه أمام من تدعوة: يراك.. ويسمعك.. ويحاورك.. وإلا فلو كان الداعى فظا غليظ القلب.. لَبَقِى الباب مغلقا.. ولن يصل صوتك إلى المدعو الذى تَتَرَّس ببابه.. وحجابه.. ولو وصل صوتك لكان غائما.. عائما.. مبهما.. وعدت من التجربة صفر اليدين.. وبقى فى يده بقية من الاحتجاج بأنه لم يسمع.. ولم تقل!

من أجل ذلك يُعلِّم الله تعالى رسوله أن يستعطفهم ونحن من ورائه ﷺ قائلا: يا أهل الكتاب.. اتركوا ما أنتم عليه من الشرك.. وما يترتب عليه من ظلم اجتماعى تَمثَّل فى عبادة الأشخاص. فإن أبوا إلا الإصرار على ضلالهم. فليَثبت المسلمون على ربوة النجاة.. إزاء فريقين يزعم كل فريق أن إبراهيم منهم. مع أن إبراهيم عليه السلام كان قبل موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ.

وإذا كان من حقهم ـ جدلا ـ أن يحاوروا فيما لهم به علم من كتبهم فكيف يكون لهم حق الجدال فيما ليس لهم به علم؟

ولكن إنما يؤتى هذا الحوار ثماره مع قوم يُحكِّمون العقل.. ويرضخون فى النهاية لمقرراته.. فكيف يكون الحال وهم يُنحّون المنطق جانبا.. لينوب عنه الانفعال فى تقرير الحقائق؟

ألم تسمع إلى فريق النصارى فى ردهم المتشنج على اليهود؟

لقد قالت اليهود ببساطة: كان إبراهيم يهوديا.. فماذا كان ردُّ النصارى:

لقد اختاروا أسلوب القصر تحدّيا فقالوا: ما كان إلا نصرانيا!

وعندئذ.. وعندما ارتفع غبار المعركة.. معركةِ الباطل الذى يكذب على الحق.. ثم يزيف التاريخ.. يتقدم المحق.. ليحسم القضية.. فلا يزيد النار اشتعالا.. ولكن.. يتلطف.. يستعطف.. ولئن كان نَقْدُه لاذعا.. ولكنه كان رفيقا.. حين يقول لهم مواصلا أسلوب الاستعطاف:

يا أهل الكتاب: تعالوا.. تعالوا وبمحض اختياركم.. إلينا أيها الحائرون.. نحن ندعوكم ابتداء.. ونلح فى الرجاء أن تأتونا لنجتمع على كلمة سواء.. بيننا وبينكم.. لا نريد أن نَفْرِض وَصاية عليكم.. فكلنا فى الهم شرق:

كلنا يدعو إلى التوحيد.. فلماذا لا نجتمع عليه؟

وعندما يسمع القوم أنهم أهل كتاب.. وأننا مقرون بهذه الأهلية.. معلنين لها.. وبلا حساسية.. فسوف يكون الاعتزاز بهذا النداء.. ومن مظاهر هذا الاعتزاز ألا يكذبوا.. وألا يزيفوا التاريخ:

وأن يعترفوا بالحق..ليتوّج الاعتزاز فى النهاية بالاستجابة لنداء الداعى إلى الله محمد ﷺ.. الذى لم يواجه هؤلاء المثقفين.. المغرورين.. بالعصا.. ولكن بالعطف.. ورجاء الجلوس حول مائدة المفاوضات.. وتأمل ما يقوله البيضاوى تفسيراً لهذا المنهج الراشد فى دعوة أهل الكتاب:

انظر إلى ما راعى فى هذه القصة من المبالغة فى الإرشاد، وحسن التدرج فى الحجاج: بيّن أولا أحوال عيسى عليه السلام. وما تعاوَرَ عليه عن الأطوار المنافية للألوهية. ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيل شبهتهم. فلما رأى عنادهم ولجاجهم.. دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز.. ثم لما أعرضوا عنها... وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقا أسهل وألزم:

بأن دعاهم إلى ما وافق عليه الإنجيلُ سائر الأنبياء والكتب. ثم لما لم يُجدِ ذلك أيضا عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم. أعرض عن ذلكَ وقال: ﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾.

وعندما وصل الحوار إلى طريق مسدود.. يظل الداعى محتَفظا بهدوء نفسه.. وسجاحة طبعه.. ليكون رده العملى مزيدا من الثبات على الحق على قدر تزايد العناد فى صدور الذين ظلموا.. وإذ يتوقف الداعية هنا لحظات يلتقط فيها أنفاسه.. فإنه يبدأ الجولة التالية..بالنفس الطويل..والبيان:

القصير فى خَلابة.. وليس الطويل فى خطابه.. وقد يظل المستكبر سادرا فى غيه.. صاعدا بغروره إلى أعلى.. ناظرا إلى الداعى بغرور.. وعندئذ سوف يكون ذلك الحَجر الثقيل: الذى نقذفه فى جو السماء. وعندئذ : ستكون نهايته النقطة التى سيرتفع إليها هى هى التى سوف تكون بداية السقوط.

*****

مجاملة.. لا على حساب الحق

أرأيت إلى الخطيب تطالعه.. من فوق المنبر العالى: بسمته الوقور.. وهيئته البسيطة.. وبراعة استهلاله..

فإذا كان ذلك أول عهدك به.. فلم تستمع إليه من قبل.. كان ذلك الاستفتاح مفتاح قلبك الذى يستقبله بحفاوة شأن الإنسان مع كل جديد مفيد.

إنها اللحظة الأولى إذن. ومدى أهميتها فى إنشاء علاقة حميمة بين الداعية والمدعو؛ذلك بأن المدعو عندئذ.. لا يعرف عن الداعى شيئا.. إلا ما يظهر منه الآن فى باكورة اللقاء.. فلتكن هذه اللحظة الأولى دليلا على صدق الداعى.. وليحرص على استغلالها بوسائل منها:

المناداة بالكنية وما يُحَبُّ من الأسماء.. الاستفتاح بالسؤال..

التلويح بمصلحة دينية أو دنيوية. ثم الاستئذان بالدخول فى ساحة المدعو.

ويدخل فى ذلك: محاولة استيعاب المدعو. عن طريق مخاطبة النفس باللغة التى تستحوذ عليها.. باللطف والحيلة.. والتصرف الحكيم:

ولقد كان مؤمن آل فرعون ذكيا وفيا لمبدئه عندما استغل هذه اللحظة الأولى بقوله: [يا قوم..] وما تثيره فى النفس من مشاعرَ غلابة تعطف القلوب إلى مصدر النداء.. ونقرأ فى ذلك ما حكاه القرآن الكريم على لسانه:

﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض﴾.. ﴿يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾.. ﴿يا قوم إنى أخاف عليكم يم التناد﴾.. ﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾.. ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾.. ﴿يا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار﴾..

ومن شأن هذا النداء الموحى المعبر ابتداء أن يفتح مغاليق القلوب.. حتى تتوب. وفى مثل هذه اللحظة المباركة التى أثار الداعى فيها مشاعر القرابة الراكدة.. لعلها أن تفىء إلى أمر الله تعالى حين يجيئها اليوم على لسان واحد من دمهم ولحمهم..

إن الداعية الذى يبحث فى الكتب.. وينقب.. ثم يقول للناس ما قرأ.. سوف يصل بهم إلى ربع المسافة على الطريق الصحيح

فإذا رأى. ووصف ما رأى.. فقد وصل بهم إلى نصفه.. أما إذا نجح فى نقل مشاعره إلى المدعوين. فهو الداعية المتميز الذى يصل بهم إلى نهاية الطريق. ومن دلائل هذا التوفيق عبر الطريق: استغلالُ اللحظة الأولى.. ثم استثمار معرفتنا بطبيعة النفوس.. لنحاول قيادتها من الداخل..

وفى سنته ﷺ شاهد على ما نقول:

فقد خاطب المقوقس بقوله: «عظيم القبط» ذلك بأنه كذلك عظيم فى نظر شعبه.. فليكن كذلك فى اعتبارنا مرحليا.. لمدخل إلى قلب يطرَبُ للمديح.. ويَهَشُّ للإطراء.. وبالتالى يفتح بابه لصوت يعطيه ما يزعمه حقا له.. فإن آمن فقد اهتدى. وإن كانت الأخرى فسوف ينجو الداعية من بذاءته.. لتبقى شخصيته فى نظر من حوله مهيبة.. مصونة.. صالحة لدعوة الراغبين إليها.

وتأمل خطابه لعدوه اللدود بقوله: «يا أبا الوليد..» وما تنشئه فى قلب الخصم من تعاطف مع الداعية الذى يحرك النفس.. يُقَلِّبُ التربة الصماء.. يعرّضها للشمس.. والهواء.. بحيث تستعد للإنبات.. ثم الإثمار!!

وقد يكون الاستفتاح بالسؤال سبيلا إلى جذب انتباه الرجال: ذلك بأن السؤال قد يستدعى جوابا متفقا عليه.. ومن ثم يكون هذا الجواب المشترك أرضية يقف عليها الداعى والمدعو.. ومن هذه الأرضية ينطلقان معا.. على الطريق: الداعى.. والمدعو.. سويا إلى ما يراد من الحق.

ونذكر هنا سؤالا وجهه رجل لصاحبه. كان يلعب «الشطرنج» فقال له وهو يحاوره: أحق هو؟ [أى لعبُ الشطرنج]. فقال اللاعب: لا..

فواجهه الداعى بالآية الكريمة: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾.. يعنى: ليس هناك إلا الحق.. ليس عن يمينه.. ولا عن شماله إلا الضلال. وعندئذ لم يسع اللاعب إلا التسليمُ.. ثم إسلامُ العقل والقلب لداعية حصيف: لم يفرض عليه موعظة ثقيلة. تنتزعه من عادةٍ مرد عليها. ولكنه استطاع بالحيلة والتلطف أن يدور حول نفسه حتى رفع الرايةَ البيضاء طواعية واختيارا.

وإذ يثير الداعية بهذا السؤال الإحساس بمصلحة دينية من ورائه.. فقد تكون المصلحة الدنيوية كذلك طريقا إلى جذب النفوس إلى الحق..

ونقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠] .

فقد جاء لفظ «التجارة» ليثير فى النفس أشواقها إلى الكسب والربح بناء على رغبتها فيما ينفعها. . فإذا تفتحت الشهية بهذه الإشارة واصلت النفس مسيرتها. . لتحقق بالطاعة خير الدنيا. . وخير الآخرة. .

فانظر كيف تكون للكلمة هذه القدرة على إثارة ما غاب فى حنايا النفوس من أشواق إلى الخير. . لنمسك بهذا الخيط. . فى محاولات تستهدف الدوران حول هذه النفس. . بما يثير فيها الحماس إلى ما ينفع الناس. . وكان ذلك دأب الدعاة الذين كانت لهم من درايتهم بطبيعة النفس ما أعانهم على أمر الله . .

رُوى أن رجلا متدينا. . عاقلا. . وقورا. . كان يتألم دائما. . ثم يثور على من يقول له: هل أنت بخير؟

وكان من وفاء صاحب له ذكى. . أن دبر له خطة تخرج به من هذا الضيق الذى يسد عليه مسالك الطريق. .

إن صديقه الذى ضاق صدره بالحياة مع ما يملكه من كنوز العلم. . والأناة والوقار. . يجعل من إنقاذه فريضة. من أجل ذلك حاوره صديقه يوما فقال له:

كيف أصبحت؟ قال: بنعمة من الله. قال له الناصح: هل تشكو صداعا؟ قال: لا. . هل تشكو خللا فى المزاج؟ قال: لا. .

ومن هذه الأجوبة الصادقة انطلق به. . ومن حيث لا يحتسب إلى ما يريد له من توفيق فقال له: إذن أنت بخير. . فلِم تثور على من يقول لك: هل أنت بخير؟!!

فانظر كيف استبعد الناصح جُمْلة: [هل أنت بخير]. . على صدقها. . وجمالها. . والتى كانت تثير غضب المنصوح. .

وها هو ذا الناصح يدخل عليه من النافذة. . بجملة أخرى. . بعد أن تعذر عليه الدخولُ من الباب. . فكان التسليم المؤكدٌ ضرورة دراسة نفس المدعو. . الذى قد يكون خلف غشاوات من الأوهام. . أو أسوار من العناد. . لحساسية حول مصطلح. . أو موقف معين. . والداعية الناصح هو الذى لا يقتحم عليه

الحصن فى عملية انتحارية.. وإنما هى اللفظة الرقيقة.. الجميلة.. المشتقةُ من لغة القرآن الجليلة.. الجميلة.. وعندئذ سوف تُفتح لنا قلوب الصحاب..

وما ظنُ المستمعين الكرام برجل يوشك أن يضحىَ بحياته فداءً لمزاجه المنحرف المستبد وإنه فى حاجة إلى اليد الصناع القادرة على الخروج به من ظلمات الطبع إلى نور الشرع.

ذكروا أن رجلا دارت به أمواج البحر.. فاستغاث بمن رأى من الناس.. ومدّ الناس أيديهم مسرعين.. كل يقول له هات.. يدك.. هاتها! وكانت المفاجأة المذهلة أن الرجل ظل قابضا يده.. فلم يمدها من خلال الموج الغاضب.. ولكن واحدا من الناس.. أدرك بذكائه.. وزكائه سرَّ الرجل.. فغير لهجة الخطاب قائلا للغريق: خذ يدى.. أنت.. فلما أخذها.. شده فنجاه الله تعالى به..

وأضاف المنقذ إلى قدرته الجسمية وقدرته الذهنية التى نجحت فى تحليل الظاهرة عندما قال للمندهشين حوله: إن هذا الرجل الغريق.. يبدو أنه بخيل.. ولأنه بخيل فإنه لم يتعود على أن يقال له: هات.. وإذا قيل.. له: هات فلا يعطى..

فلما قلت له خذ: سمع الكلمة المحببة إليه.. فمد يده.. فنجا.. ولم يكن وحده هو الناجى.. وإنما نجت سفينة الدعوة فى شخص الداعية الحكيم.. وما أحوجنا إليه اليوم.. فى زمان يتفنن فيه المبطلون الذين لا يفتأون يمكرون.. يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا..

وكم من عصاة يبدون لنا مردة عتاة.. ومن وراء هذا التمرد.. هناك فى حنايا النفس أرض بكر.. فيها رغبة إلى الخلاص.. وما أحوج هذه الأرض إلى دعاة.. إلى زراع.. زراع يغيظ الله بهم الكفار.. والله وحده المسؤول أن يبلغنا هذا المأمول.

*****

القاعدة الجامعة

إذا فرقت الأهواء والنحل بين الناس.. فقد بقى معنى الإنسانية جامعا بينهم.. إنه القاسم المشترك الأعظم.. القاضى بحسن المعاشرة وطيب المخاطبة.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى آمرا أكرم خلقه ﷺ أن يتلطف بالمخالفين فى الدين ﴿قل يا أهل الكتاب﴾.

وقد صار هذا التوجيه القرآنى شرعة لسلفنا الصالح ومنهاجا:

كتب عبد الله بن إسماعيل الهاشمى إلى عربى مسيحى هو عبد المسيح بن إسحاق الكندى:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد:

[فقد افتتحت كتابى إليك بالسلام عليك والرحمة تَشَبُّهًا بسيدى وسيد الأنبياء رسول الله ﷺ:

فإن ثقاتنا. ذوى العدالة عندنا، الصادقين، الناطقين بالحق، الناقلين إلينا أخبار نبينا عليه الصلاة والسلام.. قد رووا لنا عنه أن هذه كانت عادته وأنه ﷺ كان إذا فتح كلامه مع الناس. يبادئهم بالسلام والرحمة فى مخاطبته إياهم. ولا يفرق بين الذمى منهم والأمى ولا بين المؤمن والمشرك.

وكان يقول: إنى بعثت بحسن الخلق إلى الناس كافة ولم أبعث بالغلظة والفظاظة] [الدعوة إلى الإسلام :٧٧، ٧٨].

إن الكتابى. والمشرك.. والمجوسى. هؤلاء جميعا.. وإن لم يستجيبوا لنا طائعين.. فإن معنى الإنسانية الجامع يحتفظ لهم بحقهم فى حسن الخطاب..

ومن حكمة الدعوة أن ندرس المخاطب. لنختار له من ألوان الخطاب ما يناسبه..

إن بعض الدعاة.. وفى فورة الغضب لله.. قد لا يرى المدعو على حقيقته..

وأنت خبير بطبيب يصف دواء لعلة لم يسبُر أغوارها.. ولم يتبين أعراضها.. وقد يكون مزاج الداعية معتدلا.. وقد تكون ظروفه مواتية.. فيحاول تصدير عقيدته بالقوة ظانا أن الناس مثله سعداء..

ولو أتيحت له فرصة السفر فى رحلة إلى أعماق هذا الإنسان لهالَه ما فيها من عقد نفسية.. وثقةٍ بالمجتمع غاربةٍ أو غائبة.. والمفروض أن نحُل هذه العقد أولا.. فنريح.. ونستريح..

وإذا كان لكل عقدة حلالُها.. فإن لكل مدعو أيضا مفتاحه الذى يديره الداعية البصير.. فإذا الأبواب تفتح.. وإذا أنت على ساحة المدعو.. توجهه حيث تريد..

وقد حفِل تاريخ الدعوة بصور مشْرقة بالحكمة التى تدور حول المدعو.. لعل وعسى. قد تكون استئذانا.. أو مناداة بأحب الأسماء..

وقد تكون تذكيرا بمصير مشترك. أو تلويحا بمصلحة دنيوية قريبة المنال..

ومن صور الاستئذان ما ألمحنا إليه سابقا من مخاطبة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون فى قوله تعالى: ﴿**فقل هل لك إلى أن تزكى**﴾.

ففرعون طاغية لا يرى فى المرآة إلا وجهه.. وكل ما فى عقول البشر من الأفكار صفْر بينما رأيه فقط هو مستراد الآمال ومطمح الرجال..

ثم إن إراءته الآية الكبرى مفاجأةً قد تُعشى عينيه فلا يرى فى وهجها الحقَّ المبين.. من أجل ذلك أُمِر موسى عليه السلام أن يقدم للمهمة الجليلة بهذا الاستئذان: هل لك.. والاستئذان اعتراف بقدر المخاطب.. وتقدير لمكانته.. بين أمته طبعا..

وهو صاحب القرار فى مواصلة الحديث أو رفضه ابتداء.. واستشعار هذا المعنى يكسر من حدة الغرور ولا ريب..

وعلى هذا المنوال نسج الطيبون من الدعاة الذين سبقونا بالإيمان:

قال ابن شريح لعمرَ بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لى يا أمير المؤمنين أحدثك قولا:

وروى له قوله ﷺ: «**إن مكة حرمها الله تعالى ولم يحرِّمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما**». فقال له ابن سعيد: نحن أعلم بحرمتها منك؟! فقال بن شريح: إنى كنت شاهدا وكنتَ غائبا.. وقد أمَرنا رسول الله ﷺ أن يُبلِّغ شاهدنا غائبنا.. وقد أبلغتك. وأنت وشأنَك] الآمر بالمعروف للخلال».

وأنت واجد فى منطق ابن شريح حكمة الداعى فى التعبير عن غيرته على الحق:

إنه أوّلا: يطلب الإذن فى الكلام.. ثم لم يناد الخليفة باسمه المجرد.. ولكن بوصف الإمارة التى وضعته فى الصدارة..

ثم هو ممتلئ اقتناعا بوجهة نظره الذاهبة إلى حرمة مكة المشرفة. مدركا حرمة الدماء النازفة تحت سمائها. وهو بحسه الإسلامى واع بقيمة الحياة الإنسانية التى هى بنيان الله تعالى فى الأرض. والتى صانها الإسلام الذى لم يبح إهراق دم. أو إزهاق روح إلا لحاضر من الفساد يُتّقى. أو لمتخوَّف منه يتوقى.

وهو إذ يحكم بالقتل.. فإنما على مستحقه.. والوالد الشفيق ـ كما يقولون ـ قد يقبل قطع جارحة ولده الدوية إبقاء على البقية!

وأحيانا نقطع الشجرة فننسخُ بالقطع ظلها من أجل أن يثمر الثمر من الشجر..

ولكن القضية فى تقدير ابن شريح واضحة المعالم.. والكف عن بعث الجيوش الغازية هو الحل الإسلامى هنا.. ذلك بأن النتائج المترتبة على الصدام خطيرة.. وهى انتهاك حرمة مكة.. ويجب أن نضن بحرمتها أن تنال.. وهكذا يقول العقل ويقرر الدين ولم يكن رد ابن سعيد مقنعا.. ولكن ماذا كان رد الفعل لدى ابن شريح الناصح الأمين؟

لقد وقف به أمام السنة الشاهدة بصحة ما ذهب إليه.. ثم مضى لسبيله.. وبلا صدام..

إنه لم يكن فقط ناصحا.. ولكنه كان ناصحا، وأمينا..

ومن أماناته: أننا قد نختلف.. وقد تكون شقة الخلاف.. بعيدة. لكن وحدة الأمة أغلى وأعلى.. ويجب أن تتوارى أشخاصنا لتبقى الأمة.. أمة التوحيد: واحدة.. موحَّدة!

وذلك كان همَّ الداعية الأكبر: أن يضبط أعصابه.. لتبقى الأمة موفورة العافية:

فابن شريح.. وابن سعيد بل كلنا.. كلنا ذاهبون إلى حيث لا يعود الذاهبون.. أما أمة الإسلام فيجب أن تبقى.. بالإخاء.. والمودة..

أرأيت إلى العضو فى الجسم الفتىِّ.. كيف يؤدى وظيفته.. مع سائر الأعضاء؟

ثم.. أرأيت إذا تمزق هذا الجسم.. فصارت اليد شلوا بعد أن كانت عضوا؟

إنه لا قيمة لها إلا فى الجسم.. وبه.. وكذلك:

لا وجود للفرد فى أمة ممزقة؟ وهكذا لا حظ المفسِّرون تعْليقا على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] .

وتصور ثلاثين.. أو أربعين ألف؟.. إنها جمهرة تحجب الأفق.. ومع أنهم بهذه الكثرة الكثيرة لكنهم كانوا خائفين.. أو قل: كانوا ممزقين: كل واحد.. يحف كتفه بكتف جاره.. ولكن لا يشعر به. إنه مشغول فقط بحياته.. مشغول برأيه.. بوجهة نظره التى يجب أن تعلو.. وليكن من بعد ذلك الطوفان!!

وماذا حدث؟ لقد عاملهم الله تعالى بعكس مقصودهم فأماتهم وهكذا.. وكما أن الشجاع يحرص على الموت فتوهبُ له الحياة.. يحرص الجبان على الحياة.. فيكون الخوف على الحياة.. سبيلا إلى الفناء! ولا علاج إلا.. بالتعاون سبيلا إلى الوحدة: إلى الوجود إلى الخلود: أن أتنازل أنا عن بعض

سعادتى. . وأنت كذلك لتسعد بنا الأمة. . ثم يعود إلينا نصيبنا من هذه السعادة من خلال أمة أعطيناها أعز ما نملك. .

إنها التضحيات. التى من مجموعها تتخلق الأمة. . وتفرض بعون الله تعالى إرادتها على الحياة.

ولله در ابن شريح: إنه لم يحاول أن يفرض رأيه. . على صحته. . مستوعبا دروس التاريخ الثبت. . ومنها موقف قريش من «الطفيل» - لقد قدم الطفيل ملة. . وقامت الدنيا. . ولم تقعد لماذا؟

إن الطفيل شاعر. . أديب. . أريب. . وإذن فلو أنه دخل فى الإسلام لكشف محمد ﷺ جهازًا إعلاميا . . يضيف وجوده إلى شعراء الإسلام ليكسروا من غرور قريش.

من أجل ذلك. . اجتمع الملأ من قريش. . وفرضوا على الطفيل حصارا حتى لا يتحول ميزان المعركة به لحساب الإسلام.

ويالها من حماقة تلك التى سولت لهم أن حَشَوْا أذنيه قطنا حتى لا يسمع القرآن. . لأنهم يعرفون النتائج مقدما.

ويمكرون. . ويمكروا الله. فقد أسمعه الله تعالى ما يكرهون:

لقد صمت الرجل. . وعقد لسانه الإحراج. . عندما غمرته قريش بهالة من التقدير. . فلما زايل الضجة المفتعلة. . وتسللت من وعيه أصداء مظاهرة قريش. . عادت إليه نفسه فقرر أن يسمع. . ثم يتأمل. . ثم يوازن. . وفى النهاية يختار!!. . وقد اختار الإسلام. . ووقف إلى جانب حسّان. . يدافع عن الإسلام - فلنحاول أن نكون صورة للدعوة فى أجمل صورها. . وعندئذ فألف . . طفيل. . وطفيل. . سيُقبلون علينا. .

الا أن الفرص مواتية. . ثم هى تمّر من بين أيدينا مر السحاب. . ومن استمكن من الجليل فأضاعه. . لم ينله غدا.

*****

دعاة.. يخسرون القضية

عندما تتحول النصيحة فى منطق بعض الدعاة إلى فضيحة.. فإن ذلك مردود إلى واحد من احتمالين:

إما أن الواعظ لم يستكمل عدته العلمية ليكون داعيا.

أو يكون قد استكملها.. ولكن تنقصه الحكمة فى عرض قضاياه على الناس.

من أجل ذلك يسوء الفهم بين الداعى.. والمدعو.. وبالتالى يستحيل التفاهم. وكما قيل:

(فإن من أعظم أسباب تأخرنا: العلم الناقص.. الذى هو أشد خطرا من الجهل البسيط:

لأن الجاهل محتمل أن يستجيب علي يد مرشد عالم.. بلا تفلسف.. أما صاحب العلم الناقص.. فهو لايدرى: ولا يقتنع بأنه لا يدرى وكما قيل: البلاء بمجنون خير من الابتلاء بنصف مجنون)[1].

وإذا احتجنا إلى استكمال العدة سبيلا إلى الاقتناع.. فنحن أحوج - فى حال العلم - إلى الحكمة لتأخذ الحقيقة طريقها إلى القلوب.. إن عشرة دراهم من الحكمة.. ضرورية لدرهم واحد من المعرفة!

إن بعض الناس مصروف عن الحق جهلا.. لا عنادا..

ومن ثم.. فالرفق أولى به من قسوة تثير بها فى نفسه عوامل تقف ضد موعظتك:

عزة نفسه. عصبيته لمذهبه فى الحياة. إلفه لعادات صارت له طبيعة ثانية..

ومع إحساسه العميق بأنك على الحق فى نصيحتك إياه.. وإحساسه أيضا بحاجته إلى ما تدعوه إليه.. إلا أنك نسفت بالقسوة جسور التفاهم بينكما..

وعاد هو بذنب.. هو فيه معذور.. ولم يشفع لك إخلاصك فكنت

(١) الأمير شكيب أرسلان. «لماذا تأخر المسلمون».

مذنبا. . غير معذور!!

يقول الشيخ محمد الغزالى:

(لكى تنجح الدعوة لابد من توفر أمرين، أولهما: الذكاء الحاد. الثانى: الإخلاص العميق، وأعنى بالذكاء الاستنارة العقلية التى تجعل الإنسان يدرك الواقع إدراكا سليما، وكذلك الاستبحار الفقهى، الذى يمكن الداعية من إصدار حكم صحيح على الأمور التى تعرض عليه.

أما الإخلاص، فأعنى به النية الخالصة التى تتحرى وجه الله وترفض التأثر بأحوال الناس، كما ترفض التأثر بالدوافع النفسية الرديئة، من حب الظهور أو حرص على المنفعة، فإذا فقدت الدعوة هذين الأمرين أو أحدهما، فإن نجاحها يكاد يكون متعذرا، وقد لاحظنا أن هناك ناسا يفقدون القدرة الفقهية، وتراهم يجمعون بين رذيلتين: عدم فهم الإسلام فهما شاملا، يستوعب شعب الإيمان السبعين، فهم ينحصرون فى شعب معينة لا يعرفون ما وراءها، كما يجهل البدوى أن هناك عالما آخر وراء خيمته وشاته.

ثم هم مع هذا النقص الفقهى، لا يعرفون النسبة القائمة بين شتى الشعب فلا يفرقون بين رأس وذنب، ولا بين شكل وموضوع، وينشأ على هذا التخبط، أن الواحد من هؤلاء قد يقاسى من أجل نافلة، فى الوقت الذى يضيع فيه الفريضة. . وما أشك فى أن مصاب الإسلام من هؤلاء فادح، لأنهم قد يخلصون مع جهل أو قد يعلمون مع غش، ولا يصلح أمر الإسلام ولا تنجح دعوته بهذا التصور، لنذكر الحديث الشريف: «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**».

هذا هو السر، فى أننا حذرنا المسلمين من دعاة متعصبين تنقصهم سعة العلم، أو من علماء متعمقين تنقصهم النية الصالحة.

لو أننا نعرف ديننا معرفة جيدة، لعرفنا الخاصية الأولى فى تعاليمه، وهى السماحة والاعتدال، فإن النبى ﷺ، بعث بالحنفية السمحة، وكان إذا أرسل رجاله يدعون إلى الإسلام، أمرهم بإبراز هذه الخاصية فيقول لهم: «**يسروا ولا تعسروا.. بشروا ولا تنفروا**» وكان ﷺ فى سيرته الخاصة، معروفا بهذه السهولة فى مسلكه، فما خير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما

فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه.

ويوجد الآن بيننا متمون إلى الإسلام، يناقضون بفتاواهم وقضاياهم وسيرهم الخاصة والعامة، هذه السنة النبوية، فهم ما خيروا بين أمرين، إلا اختاروا أصعبهما، وما قدموا الإسلام إلى الناس، إلا مقرونا بالشدة والعنف، وتجسيم الأمور الثانوية، وهؤلاء لا يعرفون حقيقة الإسلام، بل لا يدركون معنى الفطرة، التى يقوم عليها هذا الدين، وقد وجدت بعضهم فى عواصم الغرب يقدمون الإسلام، على أنه أكل بالأصابع، فإذا أكل أحد بأداة أخرى فالويل له.. أو يقدمه شربا عن قعود، فإذا شرب وهو قائم فالويل له.

وتشبث هؤلاء بمثل هذا ـ ولا ننكر أنه سنة ينبغى العمل بها ـ يسبق تشبثهم بالأصول ومعاقد الإيمان، ويشبه مسلكهم مسلك الذين تحدثوا فى سنة رسول الله ﷺ، أنه كان يصوم ويفطر ويقوم وينام، لأنهم ما يرون الدين إلا صياما للأبد وقياما للأبد، وتشددوا فى معالجة الأمور كلها.

إن بعض الشباب المتحمس، قد يجمع به الغلو، وقد نتغاضى قليلا عن هذا الغلو حتى يعقل أصحابه أمر دينهم، فإذا عقلوا واعتدلوا كان بها، وإلا فإن الغلو فى الدين مزلقة إلى الإفلات منه وتركه نهائيا، وقد حرم الإسلام بنص وأوجب بنص، ولا يقبل من أحد أن يزيد من أمره ونهيه وفق هواه، بل عليه أن يتبع أحكام الإسلام التى مهد لها الفقهاء وعرفوا الجماهير بها، وبهذا المسلك نحسن إلى أنفسنا وإلى ديننا، ونخرج الشباب من الحيرة التى يحسها وهو يستمع إلى أصوات كثيرة تناديه، بفعل ما يشق عليه أو تركه، وإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه)[1].

درات هذه الخواطر فى نفسى والفتى المتحمس يجلس إلى جوارى وكانت أعصابه تحترق مع «السيجارة» المشتعلة فى يد قائد السيارة.

إن الفتى الثائر لم يستطع صبرا على مشهد السائق الذى يضيف إلى عنفه مع الراكبين، أنه يدخن! وخاطبه محتدا: التدخين حرام!

ولم يسلم الشاب المتدين من سخرية السائق، ثم لم ينقذه إلا تدخلنا، ومن تدبير الله تعالى أن تقف السيارة فجأة وفى مكان مهجور ليركب السائق

---

(١) منار الإسلام ـ شعبان: ١٤٠١هـ .

فتاة أشارت إليه بالوقوف.

وقف لها، وهو يحدث نفسه بصوت مسموع كأنما يعتذر إلى ذلك الفتى الذى يتعقبه. فقال: إنها بنت، أنقذها من وحشة الطريق، وأتحمل مسئوليتى إزاء شرطى المرور.

وكانت فرصة، وانفردت بالفتى المتدين لأهديه تجربتى.

وقلت له: كنت طالبا مثلك، وحاورت زميلا لى يدخن مثله قائلا له: كم تبلغ نسبة الاعتدال فى مزاجك لحظة التدخين؟ قال: مائة فى المائة!! قلت: وكم تكون قبل أن تشعل لفافتك؟ قال: سبعين مثلا. قلت له: أما أنا وأمثالى ممن لا يدخنون فنسبة الاعتدال لدينا، دائما، مائة فى المائة!!

وعلى هذا الاعتدال مزيد من: توفير ثمن اللفافة، ليبقى فى جيب أبى ينفق منه على بقية إخوتى.

فضلا عن صيانة أجهزتى من ضرر محقق قد يؤدى إلى الهلاك.

والثالثة: أننى - دونك - بنجوة من هذا المد والجزر بين نسبة المائة التى سوف تنحسر شيئا فشيئا، ونسبة السبعين التى سيهبط بها الإدمان إلى الصفر، حيث لا يكون هناك مزاج بالمرة!!

وانتصرت فى معركة، بلا دماء، وبلا صدام، وبلا اتهام بحرمة قد ينازعنى فيها.

هذه المعركة التى أثرتها أنت آنفا، واصطليت بنارها ولم تفلت من سخرية السائق، مع أن الحق إلى جانبك، وقد كان من سوء حظك أنك تنهى عن أمر حال التلبس به، واذن فالإقناع يكاد يكون مستحيلا، إلا أنه لا يكفى أن تكون محقا، فلابد أن يكون سبيلك لإحقاق الحق مشروعا أيضا.

إننا مكلفون بالتصدى للسيئة، محوالها، أو إضعافا لآثارها، ولكن بأى شىء ندفع السيئة؟

إن الحق سبحانه وتعالى إذا يسمى جزاء السيئة سيئة، فإنه يحض عباده على العفو، فإذا كان سبحانه وتعالى يحرض المؤمنين على الكف عن رد الأذى ابتداء، فلا أقل من اختيار الأسلوب الأمثل فى لحظة الرد جزاء.

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾[الشورى: ٤٠].

ومن صفات المؤمنين أنهم:

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

إن هذا الشاب الذى احترف التدخين واقع تحت ضغط ثقيل، فلنأخذ ذلك فى الاعتبار..

لقد جذبته الدعاية جذبا حين صورت له مثلا فتى يجالس فتاة، على نهر، أو فى ظل شجرة، والحيوية تنفجر منهما ودخان اللفافة يظللهما، فى محاولة لإيهامه بأن هذه المتعة، وذلك الشباب، بسبب السيجارة المفترى عليها، وعلى الحقيقة! فكيف نفك أسره من بين براثن دعاية تمسك بتلابيبه، بل هو يمتلئ اقتناعا بها، لأنها ترضى غروره؟

إن الفعل السيئ، لا يذهبه الكلام السيئ.

وإنما لنتعلم من فن الدعاية هذه المضللة، ولنقل كلمة هادئة لعلها تصل إلى موطن الإقناع، ولننصر هذا الفتى وأمثاله مؤكدين لهم:

إن هناك صحة وشبابا يمتلكه، هذا الفنان، وتلك الفنانة، ولكن هل هذه الصحة مردودة إلى التدخين؟!!، أبدا، إنها راجعة إلى أسباب أخر، ومع الأيام سوف يدمر الإدمان هذا الشباب، فاحتفظ به، بعيدا عن التدخين!!

إن للحقيقة سبلا تتأدى بالناس إليها، فلنبتغ إليها سبيلا ميسرا ومقنعا، بعيدا عن التجريح.

وقلت للفتى الساكت قبل أن نفترق: مع أن هذا السائق يدخن.. ومع أنه كما رأيت كان قاسيا..

إلا أن وقوفه للفتاة إنقاذا لها..ثم فى تبريره ذلك التصرف ما يؤكد وجود عنصر الخير فى قلبه.. وحرام - أكثر من حرمة الدخان - أن نترك ذلك الخير مطمورا فلا نستخرجه من أعماق النفوس.. وأعظم الناس عتوا يتحول فى لحظة إلى حمل وديع نقوده إلى حيث نشاء..

ونحن مطالبون بأن نغوص فى أعماق هذه النفوس بحكمة التدبير لنستخرج هذه الكنوز.. قبل أن يضيعها الجدال بين ما يجوز وما لا يجوز!



الدعاة وعقدة الحاكم





الدعوة.. والسلطة

سأل أحد الملوك عالماً: لم لا تجئ عندى؟ فقال العالم: أردت أن تكون خير الملوك إذ تزور العلماء.. ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك!

ويعنى اعتراف هذا العالم بضرورة أن يلتقى حكم الأمراء. بحكمة العلماء. شريطة أن تكون المبادرة من الحاكم نفسه.. إعزازا للعلم. وصيانة للعلماء..

وقد كانت الحساسية مفرطة فى مثل قول أبى حنيفة: كن من السلطان كما أنت من النار: تنتفع بها. وتتباعد عنها. ولا تدن منها فإنها تحرق..

ومهما كانت الحساسية هنا.. إلا أن الأمر[1] فى منطق العقل. وبداهة الأشياء: أن الناس يحتاجون إلى السلطان. كما يحتاجون إلى العلماء.. وإنهم يكونون أسعد ما يكونون. وأوفر نصيبا من الخير والصلاح. حين يلتقى فى حياتهم عزم السلطان وعدله. بحكمة العلماء وعلمهم.

وفى تراثنا: أن أصحاب الحكم والسلطان مسؤلون أمام الله عما استرعاهم من أمر الناس.

وأن العلماء مسؤولون أمامه تعالى عما حملهم من أمانة البحث عن الحقيقة. ونشرها بين الناس. وفى حديث النبى ﷺ: **«أن الإمام على الناس راع. ومسؤول عن رعيته»**.

وفيه أيضا: **«أن العلماء ورثة الأنبياء»**. وأن مدادهم يوزن يوم القيامة بدم الشهداء.

وفى تاريخ الإنسان الثابت والموثق: أن الصالحين من الحكام كانوا لا يبرمون أمرا. ولا ينقضوه إلا إذا استرشدوا بعلم العلماء، ورأى أهل الرأى. وأصحاب التجربة.

وفى الزمن القديم السحيق يحدثنا القرآن الكريم عن ثمرة التعاون بين أهل العلم، وأصحاب السلطان. حين يروى لنا قصة سليمان وملكة سبأ فيقول:

---

(١) د. أحمد كمال أبو المجد ـ مجلة الهلال أكتوبر : ١٩٨١.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[النمل: ٤٠].

ومهما يكن من أمر، فلا بأس أن تكون هناك صلة بين السلطان والعالم.. ما لم تكن على حساب العقيدة، وما بقيت الكرامة موفورة:

جاء أحد العارفين إلى الخليفة وقال: جئتك بعد أن أعيتني الحيل.. لقضاء حاجة، إن قضيتها شكرناك. وإلا.. عذرناك.

فنوه الخليفة بحكمة الرجل وقال للملأ: عذرنا.. وشكرنا فاقضوا حاجته

فالعالم لم يذهب إلى السلطان ابتداء.. ولكنة اعتمد على مجهوده الشخصي في إنجاز حاجته.. خوفا على دينه وكرامته من مواطن الشبه.. فلما عجز.. توجه إلى الحاكم.. لكنه كان حريصا على كرامته.. محسودا على شجاعته الأدبية حين صارح الحاكم بحقيقة الأمر.. عارضا حاجته بعزة المؤمن.. فكان ما كان من قضاء حاجته.. وعودته إلى بيته معززا مكرما.

ضرورة التعاون على البر والتقوى:

ولا يقتصر الأمر على مجرد الوصول إلى قصر الحاكم طلبا لقضاء حاجة عارضة.

فإن القضية أخطر من ذلك.. والتي تفرض على الدعاة أن يمارسوا دورهم الحقيقي مع السلطة الشرعية في الدعوة إلى الخير:

[إن على المثقفين ـ وهم المبصرون لحقيقية الواقع العربي والمدركون لحجم التحديات القائمة.. وفداحة الأخطار القادمة في خطى متسارعة ـ أن دورهم في وقت الأزمة يقتضيهم أن يقدموا ما هو أكثر من النصيحة المجردة. التي يلقيها صاحبها من برجه العاجي. ثم يمضي وهو يقول: ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد.

إن البلاغ في هذه المرحلة يقتضي عملا دؤوبا. وإلحاحا على الاقتراب من مواضع صنع القرارات. واستعلاء على كلمات التجريح واتهامات الجرى وراء المصالح الذاتية.

إن المثقف الفرد لا يمكن أن يصل صوته إلى الحاكم أو المحكوم.

وفرض عين على المثقفين العرب فى هذه المرحلة. أن تكون لهم لقاءات ومنتديات، يشيع فى أجوائها الإحساس بالأزمة، والشعور الغامر بالمسؤولية، والاستعداد للبذل، والإصرار على كسر حاجز الثقة، واختلاف منهج التفكير، والعمل بينهم وبين كثير من الحكومات.

وعليهم وهم يفعلون ذلك، أن يصيخوا السمع جيدا إلى همس الجماهير وشكاياتها، وهمومها، حتى لا يكون جهدهم حرثا فى البحر، ورجع صدى لأفكارهم هم.

إن المثقف المنعزل المتباعد عن الجماهير، لا تقيم له السلطة وزنا.

ولا تحسب له حسابا، ولا تحرص على سماع ما يكتب أو يقول.

أما حين يعبر المثقف عن هموم حقيقيه للناس، وحين تحمل كلماته نبض أولئك الناس، فإن السلطان يتعامل معه على هذا الأساس. ويحسن الاستماع له، ويحرص على الحوار معه][1].

ومما يضاعف مسؤولية المثقفين، ما طرأ على العالم اليوم من ظروف، أتاحت لهم إمكانات جديدة، تمكنهم من الدعوة، بلا صدام مع الحكام.

وليتخلوا فى نفس الوقت من هذه العقدة التى تفرض عليهم أحيانا أن يعلنوا الحرب فى غير ميدان.

يقول العلامة وحيد الدين خان[2].

[إن شيئين قد ظهرا فى وقت واحد فى العصر الحديث وهما:

حرية الرأى، وتطور وسائل الإعلام والاتصال .

إن حرية الرأى قد أصبحت حقا أساسيا من حقوق الإنسان فى سائر العالم خارج الكتلة الشيوعية..

والشىء الآخر: هو المطبعة التى مكنت نشر فكرة ما فى المجتمعات البشرية بسرعة كبيرة:

لقد ولد السيد المسيح فى قرية الناصرة الفلسطينية قبل ألفى سنة.. وكان إنسانا عظيما ورسولا عظيما... ولكن صوته لم يصل إلا بصعوبة بالغة خارج

(١) المرجع والموضع السابق. (٢) فى رسالته: المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل.

نطاقه الإقليمى. . . أما اليوم: فيستطيع أى إنسان - باستخدام وسائل الإعلام الحديثة - أن يخاطب العالم كله فى وقت واحد.

إن هذه الإمكانات قد فتحت لنا فرصة وأبوابا جديدة.

ويمكن القيام بالدعوة ونشر الإسلام على نطاق لم يسبق له مثيل فى التاريخ وبشرط عدم الاصطدام سياسيا مع الحكام.

إن الرسائل الحديثة قد مكنت الدعاة من أن يخاطبوا العالم كله فى وقت واحد. . فتصل رسائل الله إلى كل أرجاء العالم. . فلا تبقى أذن لم تسمع بها ولا عين لم تشاهدها.

إن الحركات الحديثة التى قامت على هتاف ثورة الإسلام السياسية مهما بلغ إخلاص أصحابها. . قد شوشت وأفسدت الأمر:

فالثورة السياسية لا تقوم إلا على الأرضية الفكرية الراسخة.

إن الأرضية الفكرية لصالح الإسلام قد توفرت من ناحية الإمكان منذ مدة. ولم يكن على رجال الحركات الإسلامية الحديثة سوى أن يتيحوا لتلك الإمكانات العمل والنشاط فى مجتمعاتهم. . . ولكنهم أقاموا العوائق أمام الإسلام بفتحهم جبهات سياسية غير ضرورية.

وليس من باب المبالغة أن أقول: إن إمكانات الإسلام السياسية كانت ستكون أكثر قوة اليوم لو لم تظهر الحركات الإسلامية السياسية فى القرن العشرين.

ولنفهم هذا من مثال حركة تحرير الهند. . إن شؤون السياسة والحكومة كانت تعتبر حكرا على «القصر الملكى» فى العصور القديمة.

فكان كل من يستولى على القصر بفضل قوته وبراعته. . هو الحاكم القانونى وفى مثل هذه الأحوال دخل الإنجليز إلى الهند متسلحين بالإمكانات التى أفرزتها الثورة الصناعية.

ومثلما كان «بابر» المغولى قد استولى على شمال الهند بمدفعيته المتقدمة سنة ١٥٤٦م. . أكمل الإنجليز سيطرتهم على الهند عام ١٨٥٧ متسلحين بالقوة المكانيكية.

ولكن العلم الحديث الذى مكن الإنجليز من القوة المادية أفرز كذلك علوما سياسية واجتماعية جديدة، أخذت تغير الأرضية الفكرية، القديمة .. فهذه العلوم أنتجت فكرة «الديمقراطية» و «الجمهورية» التى قضت على فكرة الحكام السلاطين، وأدت إلى ظهور فكرة «القومية» التى قضت على حق شعب ما فى السيطرة على شعب آخر.

وهكذا، فقد حكام الهند الأوربيين فى القرن العشرين ـ بسبب أفكار نبتت فى بلادهم نفسها ـ فقدوا الأساس الذى مهد لهم احتلال أراضى الشعوب الأخرى فى القرون السابقة.

ولكن الذين انبروا فى النصف الأول من القرن العشرين لتحرير الهند سياسياً أخفقوا فى استخدام هذه الأرضية الفكرية.. وضحى آلاف مؤلفة بحياتهم، ولكنهم فشلوا كلهم فى تحرير الهند.

والسبب فى ذلك أنهم كانوا يتحدون الإنجليز فى الميدان العسكرى حيث كان عدوهم لا يزال متفوقا عليهم بصورة حاسمة.

والمهاتما غاندى (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨) هو أول شخص درس الأوضاع بعمق وتوصل إلى فهم السر فى النتائج العكسية التى كانت أساليبنا تؤدينا إليها.

لقد أظهرت له دراسته للغرب أن التاريخ السياسى العلمى قد دخل عصراً جديداً.

لقد فهم أن الإنجليز قد فقدوا الأرضية الفكرية التى أتاحت لهم السيطرة على الهند.

ولكن أسلوبنا القائم على العنف يحول دون استغلال الأرضية الجديدة، وكان إعلان غاندى شعار «اللاعنف» بدلا من «العنف» وكان هذا الإعلان أخطر على الإنجليز من كل الحركات المسلحة التى كانت تعمل فى الهند.

لقد كانت لديهم مبررات وحجج للقضاء على العنف بالعنف.. ولكنهم كانوا يجهلون مواجهة طوفان «اللاعنف».

ويقال أن حاكما إنجليزيا لأحدى المديريات الهندية أبرق للحكومة عندما واجه «اللاعنف» حينئذاك يقول: (يرجى إبراق التعليمات لكيفية قتل نمر «اللاعنف»!!

وحين انتهى العنف والصدام المسلح، بدأت العوامل الفكرية تقوم بعملها وأخذت نظريات الجمهورية والقومية تسحب البساط من تحت أقدام الإنجليز... إلى أن قرروا الرحيل عن البلاد.

وهكذا كسبنا باللاعنف الحرب التى كنا قد خسرناها بالعنف!

والإسلام أيضا يواجه وضعا مماثلا:

إن الحرب السياسية تدور على قدم وساق فى شتى بقاع العالم لأجل النهضة الإسلامية... الأمر الذى أدى إلى وقوف الإسلام ندا للحكام السياسيين.

وبسبب هذا الاصطدام بين الإسلام والحكام لاتنشط الإمكانات الفكرية التي أفرزها العصر لصالح الإسلام.

أننا لو أبعدنا الإسلام عن موقف الند السياسى، فسنفاجأ بزوال كل العقبات الزائفة الاصطناعية.

ولو بدأت القوى المسلمة تخدم الإسلام بالجوانب والأساليب الإيجابية لنشطت الإمكانات العصرية توفر الجو لصالح الإسلام ـ ولعرف الناس الذين يستغربون هذا الأمر عما قريب أن العودة من ميدان المواجهة ستكون «فتحا مبينا» تماماً كما كانت بالأمس فى صدر الإسلام][1].

وتلك تجربة رجل عرك الحياة، ومارس الدعوة قولا وعملا، يقدم إلينا خلاصتها فى كلمات يودعها إخلاصه لقومه، وولاءه لدينه. وأمله فى أن يظهره الله على الدين كله.

وإذ يستبعد العنف سبيلا إلى نشر الدعوة فى مواجهة المستعمرين...، فإن العنف يكون أبعد ونحن نخاطب الحكام من أبناء ديننا...، لقد حدثنى أستاذنا الشيخ محمد الغزالى عن أهمية الدعوة اليوم عن طريق التربية صياغة للطفل المسلم فى البيت، وترسيخا للتعاون على البر والتقوى بين صفوف الجماعة.. تعاونا يؤتى أكله فى كل نواحي الإصلاح الاجتماعى رخاء، وأمنا، إن الانفعال الساخن على صفحات مجلة تندد بالحاكم، يستعدى الحاكم عليها، بالإضافة إلى سلبيته وعدم جدواه، فى تحقيق تقدم يذكر على طريق الإصلاح.

(١) يشير إلى صلح الحديبية.

(إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تحرج قوى الباطل... بل تخدشها... وهى لا بأس بها.

لكنها تنقلب إلى أمر بالغ الخطورة: إذا لم يعقبها عمل إيجابى مثمر.

إذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة، ومن ثم الركون إليها، وعلى أحسن الفروض، استمرار هذه النقمة، ولكن بشكل جامد لا حياة فيه، يؤدى إلى شلل الحركة، وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع)[1].

إن الصياح العالى ما هو إلا احتجاج، أعنى مجرد الإعلان عن شعور المرارة إزاء قضية ما،وذلك وحده لا يكفى... لأنه وقفة على الأطلال، تبكى، أو تتباكى.

وذلك جهد ضائع ما لم يكن للمتباكين دور حقيقى فى إبراز قيم الإسلام وأسسه التى أعدها ليقوم عليها البناء الاجتماعى.

يقول المرحوم الشيخ على الزنكلونى:

(إن حياة الإسلام اليوم على وشك أن يأتى الزمان على ما بقى لها من آثار وأطلال، والناس يتساءلون عن السبب ... وأهل الدين واجمون.

ومن حين لآخر يجتمعون فيحتجون، أو يحملون الناس على الاحتجاج على أن الاحتجاج ليس دفاعا، وإنما هو مجرد إظهار شعور بالشىء المحتج عليه، وحمل الناس على إظهار الشعور دون أن يندفعوا إليه بأنفسهم كالتيار الجارف دليل على ضعف الشعور... وكل ضعيف فى الوجود أثره ضعيف.

وقد جهل القوم أو تجاهلوا: أن الدفاع عن أطلال الدين البالية إذا لم يتصل بأصل متين يعتمد على العقل، وعلى الحياة الفاضلة فى نظر العقل، مع الاجتهاد فى إظهار الأسس القوية التى كانت لهذه الآثار والأطلال بحيث يتلاقي تجديد البناء المحكم وسرعة السير فيه مع الدفاع عن تلك الآثار إن لم يحصل هذا، فلا قيمة للدفاع مهما قوى، فضلا عن ضعفه.

على أنه محال أن يقوى حتى تظهر شدة ارتباطه بالقواعد المحكمة، والأصول التى يطمئن إليها العقل فى أنها عنصر لابد منه فى بناء الوجود

---

(١) الدعوة والدعاة : ٢٦٥، ٢٦٦.

وسعادته وجماله...

إن الدينيين عامل كبير فى تقويض بناء الإسلام:

لأن الحياة المادية بقوتها الحقيقية والمزيفة تهاجم الإسلام فى كل يوم وللقوة فعلها وأثرها، والوجود كله خاضع للقوة.

فالعقول بفطرتها مستعدة للخضوع أمام قوة الحجة وبريق البيان، كذلك الماديات فى النفوس البشرية خاضعة لما حولها من القوة الدافعة للأهواء والشهوات.

وإذا كان جو الإنسان العقلى والمادى مزدحما. بجيوش الفساد وأسلحته وذخائره، وليس للخير أقل جيش وأضعف عدة تقف فى وجه جيوش الشر الجرارة، فعلى أى مستند من العقل تقل الشرور وتنعش روح الإسلام؟

وبأى حجة تختصم مع الخارج على الإسلام من أبناء المسلمين وهو لا يعرف الإسلام وهو لم يستظهر جماله وقوته العقلية، والمادية فى أهله بجانب الشرور المنتشرة؟

إن التكليف بذلك تكليف بما لا يعقل.

فليبرز الإسلام الحقيقى أولا: فى جماله وقوته العقلية والمادية.

وهنا تتسرب جيوش الشر إلى مراقدها فى بطن الأرض أو تنهزم شر انهزام.

وإن تعجب من مسلمين وحماة دينهم من شىء فليكن عجبك أشد من أنهم يؤمنون ببعض الدين ويكفرون ببعض، كما فعل اليهود من قبلهم: فالدين كل ما جاء به محمدﷺ، وليس بعضه أولى بالدعوة له والتمسك به من بعض.

فليست الصلاة والصوم والعبادة اللسانية أولى باسم الدين مما يمس المال ويدفعه إلى الأعمال الشاقة، ويوجب ارتياض النفس على المروءة وعلو الهمة، والنهوض فى سبيل الرقى الفكرى والحياة القوية، بل قوام الإسلام فى الحقيقة هو الكمال الإنسانى الذى يفيض بقوة العقل والمادة معا.

وما العبادات وأشباهها مما لا يكلف المسلم كبير عناء، إلا مظاهر بناء ذلك الجمال).

والعلماء.. أيضاً!

ولم يسلم العلماء من الهجوم.. والقسوة فى النقد الجارح!

وقد شاهدت ذلك الشاب الذى يضرب بقبضته القوية منبر المسجد قائلا:

يا طول.. ما قيل فوقه من كلام!! وأين نتيجته؟!! كما سبق أن قلنا. أنه.. يشجب!! ـ كل جهود العلماء.. لأنهم حكوميون، ولا أمل فيهم على طريق الإصلاح!

هكذا.. لمجرد أنهم موظفون.. يضرب بجهادهم عرض الحائط!

ولا ننسى الحملة الضارية التى تشن على عالم لأنه رأى رأيا قد يكون خاطئاً.. لكن الهجوم المضاد ـ! ـ قد يفجر فى الرجل دوافع العناد فلا يعود إلى الحق كيداً وعناداً!

لقد كان العلماء فى الماضى يأمرون الحكام.. ويعظونهم.. ويدفعونهم عبر الطريق المستقيم. بقدر ما شددوا النكير على المنحرفين منهم. وهذا سر احترامهم لدى الجمهور.. ولما تقدمت بالناس الحياة.. كسدت سوق العلماء.. وانفض عنهم الحكام.. ولم يقفوا بهم فى مراكزهم العالية.. والتى يرشحهم لها وضعهم الدينى. فخف وزنهم لدى الجمهور.. واستهان بهم العامة.. وانفضوا من حولهم فتلقفهم أنصاف المتعلمين.. والمتدينين.. فكانت الخسارة فادحة.

ونحن مطالبون باحترام العلماء فى عصر يحسون فيه بالغربة فى أوطانهم وإلا فإن القذيفة الآتية إليهم من أحفادهم.. والعاملين معهم فى حقل الدعوة.. توسع شقة الخلاف.. وتهيئ الفرصة لأعداء الدين أن يحتلوا الساحة.. حين يغيب حراسها الحقيقيون.

وفى تعليل هذه الظاهرة، ظاهرة الهجوم على العلماء المتخصصين ومحاولة التفرد بفهم مبادئ الإسلام.. من قبل من لم يحط بها خبراً.. وما يجره ذلل على الأمة من ويلات .

يقول الدكتور زكريا البرى:

(نشأت بصورة واضحة فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧، كان الناس يعتقدون أن وراء الهزيمة، ولاء للاتحاد السوفيتى وأن هناك موجة من الإلحاد بدأت تنتشر فى البلاد.

وعندما تولى الرئيس السادات الحكم وبدأ جو الديمقراطية استغلته الجماعات الدينية استغلالاً سيئاً ولم تحاول الاستفادة به، ولم يوجد فى قياداتها من يرشد سلوكها وأفكارها، بل قاد الشباب، ولم يحترم أحد مبدأ متخصص، وشر ما تبتلى به أمة أن لا يحترم فيها مبدأ التخصص.

سؤال: عن ما نعنيه بالتخصص؟

الوزير: هل رأيت مريضاً يذهب لرجل دين لكى يشفيه، لابد أن يذهب لطبيب، ومثاله مثل الذى يريد أن يبنى عمارة هل يذهب لصيدلى أم يذهب لمهندس عمارة!!

إذن من تصادفه مشكلة دينية، لابد أن يرجع لعلماء الشريعة الإسلامية أو لرجال الأزهر، وكما شاهدنا، أنهم فى الجماعات الإسلامية لا يحترمون مبدأ التخصص وقال سأذكر لك حادثة وقعت لى عندما كنت رئيساً لقسم الشريعة بجامعة القاهرة.

ليس من الإسلام:

كنت رئيساً للجنة مناقشة رسالة دكتوراه ومعى بعض أساتذة الجامعة، وكان وقت المناقشة قبل المغرب،واتفقت مع لجنة المناقشة أن نستمع إلى تلخيص للرسالة وعندما يحين وقت الصلاة نرفع المناقشة ثم نستكملها بعد الصلاة، وإذا بأحد طلاب كلية الحقوق وقبل موعد الصلاة يطلب منى أن أرفع المناقشة للصلاة ولم يكن وقتها قد حان بعد، وأخبرته بذلك إلا أنه طالبنى بالمبادرة بالصلاة، وناديت عليه وأخبرته أنه ليس من الإسلام أن يوجهنى وأنا أستاذه.

إذن انعدم مبدأ التخصص وأصبح الطالب أعرف من أستاذه بعلوم الدين وكلها أمور مستوردة،أرادت بها الشيوعية أن تحدث نوعاً من البلبلة والفوضى فى مجال القيم الدينية وقيم المجتمع الأصلية والمترسخة فيه عبر آلاف السنين[(١)].

إن التطرف هنا.. كالتساهل هناك..

وليس المتساهل بأولى باللوم من هذا الذى يركب الشطط فلا يبقى ولا يذر.. ولابد من مزيج من الحماس والأناة.. ليشكلا معاً مركباً مستساغا يحقق الله به الشفاء.

---

(١) الأخبار ١٩٨١/٩/٧.

ومن مال كل الميل إلى الطرف الأول ـ الأمل والغرور ـ فقد عرف ربه بالرحمة والنعمة، ولم يعرفه بالبطش والنقمة.. ومن مال كل الميل إلى الطرف الثانى ـ اليأس والقنوط ـ فقد صرفه بضد ذلك.

وكلاهما ناقص المعرفة بربه، ما عرفه حق معرفته، ولا قدره حق قدره ﴿إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾.

يداك: يد خيرها يرتجى وأخرى لأعدائها غائظة.

ثم إن العقيدة المتطرفة لا يمكن أن يصلح عليها أمر الخلق، ولا يقوم بها نظام العالم: لأن الاستبشار والاتكال داع إلى التفريط والتهاون ولأن اليأس والقنوط داع إلى الإفراط والعنت والحرج وإنما يصلح أمر القلب إذا أخذ حظا من الرجاء، وحظاً من الخوف:

هذا من ورائه يسوقه بعصاة. وذلك من أمامه يحدوه برغائبه ومناه.

ولا يكون ذلك إلا إذا اعتدلت العقيدة فكانت وسطا بين التفريط والإفراط جامعة بين أطراف الصفات.

وهذا الرأى الوسط تجدونه عند الأمة الوسط وهم: أهل السنة والجماعة[1]:

ألا ما أحوجنا إلى الوعى بتاريخنا المجيد لنجدد به أنفسنا، هذا التاريخ الحافل بالدروس والعبر.. والمواقف التى تفرض علينا مصاحبتها لتضىء لنا الطريق.

من مواقف العارفين:

روى ابن كثير: أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك. فقال له الوليد:

أخبرنى: أيحاسب الخليفة؟ فإنك قد قرأت القرآن وفقهت؟

فقال: يا أمير المؤمنين: هل أقول وأنا آمن؟

قال: قل فى أمان الله.

قال: يا أمير المؤمنين:

أنت أكرم على الله أم داود عليه السلام؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة. ثم توعده فى كتابه فقال:

(١) د. محمد عبد الله دراز كنوز السنة ٦٨، ٦٩.

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص:٢٦].

وفى هذا الموقف دروس:

١- فالحاكم يحس بالقلق من الدنيا المقبلة عليه.. ويخشى عقبى الانغماس فى النعمة وأبهة السلطان.

٢- ثم هو يطلب النصح ممن يملك القدرة عليه بما منحه الله تعالى من حفظ القرآن وفهم مراميه.

٣- وهذه المبادرة محسوبة فى ميزان الحاكم ولا شك. حين لم تستبد به نشوة الملك.. فاتجه إلى العلماء يطلب الهدى.

٤- ومع هذه المبادرة بشواهدها المطمئنة إلا أن العالم يحتاط لنفسه.. فلم يبذل النصيحة حتى يأخذ الأمان.. وقد أخذه.

٥- لكنه فى نفس الوقت لم يسئ استخدام هذا الأمان.. حين جاءت نصيحته استشهادا بالنبى الملك داود عليه السلام.. وكيف أنه مع عظم قدره لم يكن بنجوة من العقاب لو أطاع هواه.

أى أن الداعية هنا لم يحرج الخليفة.. بخليفة قبله.. أو حاكم فى دولة أخرى.. ولكنه استشهد بقمة عالية لم يعفها المنصب العالى من المساءلة أو العقاب.. ولا شك أن نصيحة من هذا النوع.. تستهوى النفوس.. ولا تثير الغضب فى قلب المنصوح.

ولا ينفى ذلك.. أن تكون الصراحة أحياناً سيدة الموقف.. وأن تكون الكلمة الصادعة بالحق أقوى من كل احتياط وحذر.

قال سجان الإمام أحمد:

هل الأحاديث التى وردت فى أعوان الظلمة صحيحة؟

فقال: نعم.. صحيحة!

قال السجان: وهل ترانى من أعوان الظلمة؟

فقال الإمام: أعوان الظلمة: من يخيط لك ثوبك. أو يقضى لك حاجتك؟ أما أنت فمن الظلمة أنفسهم!!

إن الجنود أعوان الظالم.. فهم معه حطب جهنم! ولقد فرض على الإمام أن يكون صريحاً.. ليكشف غطاء الجهل عن قلب الرجل.. وليتحرر معنى الظلم فى أعين الغافلين.

ولقد قالها الإمام كلمة باقية.. وفى ظلمة السجن. وعذابه.. وهو على حال من قال: أنا الغريق.. فما خوفى من البلل؟!

دور الشباب في التمكين للدعوة:

الشباب صورة اليوم وعدة الغد، وعنوان الحاضر، وقوة المستقبل. وعلى الشباب تعقد آمال الأمة.

وما بعث الله نبياً ولا أرسل رسولا إلا كان شاباً، وكان مؤيداً بالشباب، وكان سيدنا إبراهيم شاباً يوم أنكر على قومه عبادتهم للأصنام.. لهذا قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠].

ويوم بعث موسى استكبر عليه الملأ من قومه ﴿وما آمن له إلا ذرية منهم﴾، وكان أصحاب الكهف شبابا: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]

والحواريون الذين نصروا عيسى كانوا شباباً:

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

أجل. إنهم شباب يوم قالوا نحن أنصار الله، إذ فيهم من عاش بعد ذلك سبعين عاماً كيوحنا الإنجيلى، ومنهم من عاش خمسين عاما كفيليس.

وعمر بن الخطاب كان شاباً يوم طلب النبى ﷺ أن يعز الإسلام بأحب الرجلين عمر بن الخطاب «الشاب» أو عمرو بن هشام «الشيخ».

فاستجاب الله دعاء النبى.. فأسلم ابن الخطاب وعمره يومئذ أقل من أربعين عاماً.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال:

«بعثت بالحنفية السمحة، فأعاننى الشباب وتخلى عنى الشيوخ»[1].

---

(١) يقول المؤلف فى الهامش: لم أقف على تخريج هذا الحديث بهذا الترتيب.

ذلك بأن الشباب مظنة التقليد. والشيوخ مظنة المضى على ما شبوا عليه:

لهذا قيل: «من شب على شيء شاب عليه ومن شاب على شيء مات عليه» وكل من تعود شيئاً حتي بلغ الخمسين عاما تحجر عليه وصعب انتزاعه منه.

على حد قول الشاعر:

إذا جاوز الخمسين سنك لم يكن ... لـــــدائك إلا أن تموت طبيب

وقول الآخر:

يقـول الشـــارخ من زيغانـه ... فيستوى ما انعـاج منه وانحنى

والشيـــخ إن قـومته من زيغـه ... لم يقم التثقيف ما منه التـوى [1]

وهذه الأهمية تفرض علينا مسؤولية مضاعفة ونحن نتصدى لأعداء الشباب كي يتحمل دوره في التمكين للدعوة.

(١) تاريخ الدعوة إلى الله للأستاذ آدم عبد الله ٦٣ : ٦٥ بتصرف.

الشباب فى مهب الريح

ومع هذا فالشباب معذورون!... معذورون من حيث طبيعتهم الفائرة فى هذا العمر الباكر... وما يلاقونه فى البيئة من مشاهد لا تتجاوب مع هذه الطبيعة.

وفوق هذا.. ما يدبر لهم من قبل الأعداء من خطط تستهدف إماتة معانى الطموح فيهم.. حتى يستنوق الجمل.. ويخلو الجو لصنائع هؤلاء الأعداء.. فيستنسر البغاث بأرضنا.. وتتنمر الهررة.. وتتحرك الذيول..!!

إن طبيعة الشباب كما يلاحظ الفاقهون:

* دماء حارة. * عزائم قوية.
* ثورة دائمة. * لا يبالون بالمعارضة.
* لا يكترثون بالمصالح.
* عندما يدركون حقيقة ما..سرعان ما يندفعون للدفاع عنها مهما كان الثمن.
* وكل ما يعترضهم فى اندفاعهم من مصاعب يشحذ هممهم.

وحساسية هذا الحقل البكر هى التى دفعت أعداء الإسلام إلى تطويق هذا الشباب ومحاولة استثمار هذه الطاقات لحسابهم.

خطة الأعداء:

يقول الحق سبحانه فى شأن فرعون: ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه**﴾.

(وهكذا أدركوا المقتل الذى عرفه فرعون، فتواصوا بالإفساد.. وأخذوا يحولون المجتمعات إلى فتات غارق فى وحل الجنس والفاحشة والفجور، مشغول بلقمة العيش لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد، كى لا يفيق بعد اللقمة والجنس ليستمع إلى هدى، أو يفىء إلى دين.

وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله، فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت، ولايمكن أن يطيع له أمراً)(١).

(١) راجع فى ظلال القرآن.

إنها خطة لا تواجه السيل، وإلا جرفها، وإنما هى محاولة احتوائه على ما يقول الشاعر:

هو السيل: إن واجهته انقدت طوعه	وتقتاده من جـــانبيه فيتبع

(فأمر الطاقة المعطلة المحبوسة كالفيضان والسيل تماما: يكون خيراً لمن عرف شق الجداول للاستفادة منه. وضرراً لمن أهمل، فكل جيل سيل، بيدنا أن نجعله مفيداً، أو نتركه يضر)[1].

وقد عرف الأعداء كيف يشقون الجداول أمام طاقات الشباب فى محاولة لاستقطابها طبق سياسة ما كرة:

(سياسة محاربة المساجد بالمراقص ومحاربة الزوجات بالمومسات ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة)[2].

وقد صاغ «إقبال» هذه السياسة فى قوله:

علموا الليث جفلة الظبى وامحوا	قصص الأسد فى الحديث القديم
همهم غبطـــة الرقيــق بـــرق	كــل تأويلهم خـــــداع عليــم

وفى أبيات أخر يقول:

يسلـــب السرو[3] جـــميل الميل	ويـــرد الصقـــر مثـــل الحجل[4]
يسحر الركبـان باللحـــن المبين	ولقاع البحـــــر يهوى بالسفين
نومـــــت الحـــــانه يقظتنا	أطـفـــأت أنفاســـــه وقـــدتنا

وفى تعبير كاشف عن جانب من طبيعة الإنسان، ومدى سوء استغلال الأعداء بميولها وترويضها..

يقول المرحوم عبد الوهاب عزام: (الإنسان بفطرته نفور من الذل، آب على الحيف. ولكن تحيط بالناس أحوال، وتتوالى عليهم حادثات. فيراضون على الخضوع حيناً بعد حين. ويسكنون إلى الخنوع حالا بعد حال حتى يدربوا عليه، كما يستأنس السبع، ويؤلف الوحش.

ولكن يبقى فى النفس ذرات من الكرامة، وفى الدماء شذرات من الجمر.

---

(١) محمد الراشد. فى العوائق. (٢) وحى القلم للرافعى ٢/٢٥٨. (٣) السرو: المروءة والشرف.

(٤) الحجل - بفتح الحاء والجيم -: طائر معروف، وكذلك صغار الإبل وأولادها.

فإذا دعا إلى العزة، وأذن بالحرية، وأيقظ الوجدان النائم، وحرك الشعور الهاجد.. نهضت الكرامة فى النفس، وبعثت الجمرة فى الرماد، وأفاقت فى الإنسان إنسانيته فأبى وجاهد، ورأى كل ما يلقى أهون من العبودية.. وأحسن من هذه البهيمية، كل ذلك يصيب الإنسان من غيره، ويناله من ظاهره، قريب شفاؤه، ويسير إزالته.

فإذا نبع الذل من النفس، وانبثق من القلب فهو الداء الدوى، والموت الخفى، ولذلك عمد الطغاة المستعبدون إلى أن يشوبوا الناس الذل؛ بالتعليم الذليل، والتأديب المهين، وتنشئة الناشئة عليه، بوسائل شتى، ليميتوا الهمة، ويخمدوا الحمية، وإذا بيدهم العصا والزمام)[1].

ما هو العلاج:

لابد - لكى يكون العلاج ناجحا من:

(أ) فطرة طيبة. (ب) تربة طيبة. (جـ) روافد طيبة.

(وهذه العناصر مجتمعة مثل الشجرة الطيبة، فوق التربة الطيبة والروافد الزكية الطيبة.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾[إبراهيم: ٢٤].

وفقدان هذه العناصر: يخمد بذور الخير. ويعطى الفرصة لبذور الشر فتطغى. وتحرر النفوس من قدرتها التى تحتضن بها بذور الخير فتغدو قيعانا لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ أو كالكوز مجخيا لايعرف معروفا ولاينكر منكرا)[2].

وهكذا يريد الأعداء بشبابنا من وراء الحملة المغرضة الرامية إلى ترويض الشباب عن طريق ما يرمى به المجتمع من فنون الإعلام اللاهية والتى تصيب الشباب بما يشبه الانفصال الشبكى بين ما يعتقده من حقائق دينه وما يراه فى مجتمعه.

رأى الشيخ الشعراوى:

فى معنى كلمة قالها الشيخ.. بين أن الذين يعالجون أمراض الشباب ماذا

(١) الشوارد ٣١٨.

(٢) كنوز السنة للدكتور دراز. ومعنى مجخيا - بفتح الجيم وكسر الخاء المشددة: منكوساً.

هم فاعلون؟

هل نعزل الشباب عن المرض؟

لا تجدى هذه الوسيلة نفعا. والعزل غير ممكن... «فميكروب» المرض يمتطى الهواء، ويخترق المنافذ.

وإذن، فما هو الحل؟

الحل هو: أن نحمل نحن «الميكروب» لمن نحب - تحصيناً ومناعة - كما يفعل بشأن الأمراض الجسمية، ليصبح البدن مدرباً على الدفاع بذاتيته. أى نحمل «الميكروب» خامدا، باردا، فنحمى الداء بالداء.

وكذلك فى المعنويات... إن وسائل الإعلام لا سبيل إلى الفرار منها، وحين نمنع الشباب من بعض ما تحمل من فكر ردىء يحدث ما يأتى:

* سيحتال الشباب لرؤيتها؛ أو قراءتها، وهو مشوق إليها.

* وسيكون حانقا لا عليها. ولكن على من يصرفه عنها.

* فى الوقت الذى تجذبه هى ببريقها، فى غيبة أسلحة الدفاع التى لم نقدمها إليه ليكون مستعداً.

* ولو عرف الحق بعد ذلك، يجيئه الحق بعد أن تكون الأفكار الرديئة قد تمكنت من قلبه.

* أما لو عرفناه بها من قبل، لتصدى لها.

* وهذا هو منهج القرآن الذى يحكى دائماً وجهة نظر الخصوم الباطلة ثم يكر عليها بعد ذلك، فلا يبقى لها على أثر. وبعد هذا، سوف نعترف بأن أجهزة الإعلام لم تقم بدورها العاصم لهذا الشباب من التفريط، أو الإفراط، الأمر الذى يفرض علينا البحث عن البدل، والذى يملأ الفراغ، فينحى بالمادة الجيدة هذا الزيف الوافد، فى الوقت الذى نتجاوب فيه مع فطرة الشباب التى تحب الحياة.

فى مجال التطبيق:

ولا أنسى أبداً، كلما عدت إلى القرية، ورأيت التغير الكبير فى حياة الشباب هناك، وارتباطه بوسائل الإعلام ارتباطا أنساه لون الحياة البسيطة كما

عشناها، ولكم تذكرت قول الشاعر:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبا خـــاليا فتمكنا

لقد كان تأثير البرامج التليفزيونية فى أبناء الريف أسرع وأعمق.

وسبب ذلك كما يقول بعض الباحثين: أن السينما تبهر عيون القرويين التى لم تعتمد النظر قبل ذلك إلا إلى: الحقول الخضراء، والجداول، ولم تحس إلا بعلاقات الحب تربط بين الآباء والأبناء والأخوات.

وإذا بكل هذا يتغير، لينشأ فى الذهن إمكان وجود علاقات أخرى لا يرضى بها الدين وترفضها تقاليد القرية، وقد وجد الشباب المتحمس ذلك التناقض بادياً بين ما يقرره الدين، وما تلح به أجهزة الإعلام فتألموا - وحق لهم أن يتألموا - ثم بحثوا عن البديل بعيداً عن هذا الغسيل!

مشروع الدكتور زكريا البرى:

تحدث الدكتور زكريا البرى عن مشروع يستهدف إنشاء شركة إسلامية لإنتاج «أفلام» تعبر عن المبادئ الإسلامية الأصيلة، بقدر ما تقدم من ألوان المرح المباح، والنكتة الهادفة ما يلبى أشواق الشباب الطامح إلى الكمال، والجمال أيضا[1]!

---

(١) نشرت جريدة الأخبار القاهرية هذه الفكرة فى تعليق لى عليها، وعقب عليها الأستاذ عبد الرحمن البنا فى عدد تال من الجريدة فقال: جربنا ونجحت التجربة قرأت فى جريدة الجمعة فى عددها قبل الماضى ما كتبه الدكتور محمود محمد عمارة المدرس بكلية الدعوة بالمنوفية عن حديث الدكتور زكريا البرى وزير الأوقاف بخصوص مشروع يستهدف إنشاء شركة إسلامية لإنتاج أفلام تعبر عن المبادئ الإسلامية الأصيلة، وفيه يقول الدكتور عمارة: «فجربوا هذا المشروع فى رمضان على الأقل» وأقول معقبا: إنى جربت هذا الأسلوب من قبل، وكان «التليفزيون» وليدا يحبو، وكان الدور الفعال للمسرح والسينما، وكنا نبحث عن الشباب فى المساجد فلا نجده يرتادها إلا قليلا، وكان معظم الشباب يؤم المسارح ودور السينما، فقصدناه فى المسارح أولا وكان علينا أن نقدم عروضا توازى ما يراه أو تفوقه، فكتبنا (المسرحية الإسلامية) وأعددنا الممثلين الممتازين الذين تخرجوا فى المعاهد المتخصصة وتفوقوا بمواهبهم الأدبية، وروحيهم الإسلامية.

ولقد عرضنا على أكبر المسارح وأعظمها وهى دار (الأوبرا) ونقلت الإذاعة هذا العمل فتحدث الناس عن الحدث العظيم، ونجحت بفضل الله التجربة، ورست قواعد (المسرح الإسلامى) وتوافد كبار مخرجى (السينما) يريدون نقل هذا العمل إلى (شاشات السينما).

وليس المجال مجال تفصيل، ولكنه مجال تفاؤل بالنجاح إن شاء الله ما التزم مشروع وزارة الأوقاف بما التزمناه من حدود الإسلام وشرائطه فى ذلك، مع أصالة الفن، وجمال العرض، وسمو القصد.. مما يبشر إن شاء الله بنجاح التجربة الجديدة.

ومعنى ذلك أن الدعوة تستخدم أساليب العصر المحكومة بالمفهوم الإسلامى الجاد، والتى تتوخى عرض الفضيلة على الناس مشرقة عن طريق الفن الذى يخاطب القلوب ويهز المشاعر.

مناقشة الفكرة :

الفكرة فى ذاتها قيمة يفيض بها وجدان عالم مؤمن له فى تربية الشباب باعٌ طويل، بيد أنها من الناحية العملية لن تؤتى أكلها حتى تنقى البرامج الإعلامية الحالية مما يشوبها من سخرية بالقيم، وعدوان على الفضيلة أحيانا.

وإلا.. فلو خرج المشروع إلى النور مع بقاء هذه البرامج الهازلة التى تخدر الإرادة، فلن تحقق ما نؤمله من إعداد شباب مؤمن بدينه محب لوطنه.

إن الشيوعيين والملحدين لا يعارضونك حين تبنى مسجداً، فلتشيد ما شئت من مساجد.. ولتتخير لها كبار الدعاة.. ولتوفد إلى تجمعات الشباب وعاظا ومرشدين.. فسوف تضيع جهودهم سدى ما بقى هذا الإصرار على تعكير مجرى الحياة الصافى.. بمثل هذه البرامج.. وسوف يتخطف الإلحاد شبابك عند خروجه من المسجد.. وبعد إلقاء الموعظة.. ثم إغراقه بما يبطل مفعول الصلاة من صور المجون!!

ولقد خاضها الدكتور البرى معركة سلمية ضد برنامج معين يذاع فى رمضان.. وكانت صرخته فى واد ونفخته فى رماد وبقى البرنامج متحديا مشاعر المسلمين - بل وصل الأمر ببعض الصحفيين أن نشر مقالا ضافى الذيل يذكر فيه آراء كبار الكتاب فى صاحبة البرنامج. وكيف وضعوها مع الخالدين!!

ثم ينكر وجهة النظر الدينية فى هذا الموضوع تحت عنوان «الشيخ عبد المتجلى» الذى هزم فى معركة كان من الممكن أن ينتصر فيها.. لينقذ بهذا الانتصار شبابا يأكلهم التمزق من هذا الهراء.. ثم يصرخون.. ويتعصبون ونشتكى أخيراً من تعصب وضعنا نحن أساسه؟!!

والغريب أن أسماء معينة تتنادى كل عام - وبين يدى شهر رمضان - بما يشكل خطراً يتهدد مشروعا كهذ يراد له أن يظل حبرا على ورق.

إن طبيعة النفس الإنسانية أميل إلى الهزل.. منها إلى الجاد.. ولأن قليلا من الثقافة الرديئة لا يمحوه من القلب علم فى غزارة البحر.. فإن الأمر يحتاج

إلى محاولة نتشل بها ذلك الشباب من تمزق يكاد يعصف بهم.. ثم يكاد يعصف بالمجتمع كله على المدى الطويل.

وأصدق الدكتور القول:

إن الشباب أحوج إلى تنحية هذه البرامج الهازلة منه إلى هذا المشروع الجاد.. لتظل النفس مستعدة لتلقى بذور الخير.. وتنميتها..

لقد اتضح لنا أن إفساد الأمة كان جوهر خطة فرعون.. ليتمكن عن طريق إفساد الأمة من تحقيق مآربه وإماتة الكرامة فى صدور بنيها..

فلنذكر ذلك جيداً.. ولنفوت على أعدائنا الملحدين فرصة يتحفزون لاهتبالها.

والغريب أيضاً: أن البرامج الهازلة تحشد كلها لتذاع فى رمضان بالذات.

وبالذات أيضاً بين المغرب والعشاء.. حيث تعتقل أبناءنا فى هذه الفترة الحساسة لتغمرهم بمختلف الملهيات فلا يستطيعون صلاة المغرب ولا العشاء ولا نستطيع نحن حملهم عليها..

مع ملاحظة أن الشباب فيما بين المغرب والعشاء لا يحتاجون إلى تسلية حين يشغلون بالطعام والشراب.

ولكنها خطة.. نرجو أن نتنبه إليها.. إنقاذا لشبابنا على الطرف الآخر.. الذين يحزنهم هذا حزنا قد يتحول مع الأيام إلى أعصار وليت الهازلين يسكتون حتى إذا أدى أولادنا صلاتهم. فعلوا ما أرادوا.. إذن لكان لهم عذر.

إن أمثالنا ممن يعملون فى مجال الشباب يلاقى من أمر إقناع هؤلاء الشباب عسرا.. لأنهم يملكون حججا قوية من هذه البرامج التى ننكرها نحن معهم ثم لا نستطيع تغييرها.

وزمام المبادرة بأيدى أجهزة الإعلام ليجد الدعاة ما يقولون..

إن إيفاد قوافل الدعاة إلى شباب الجامعات لن يجدى نفعا فى إقناعهم بصلاحية واقع يشاهدون هم آثاره السيئة ومجافاته لروح الإسلام... بل لن يسمح لهؤلاء الدعاة حتى بالكلام أمام هؤلاء الشباب الذين فقدنا ثقتهم بنا يوم

أن تأكدوا أننا لا نملك إلا الكلام. .

وزمام المبادرة بيد الذين يمسكون بأيديهم دفة التوجيه.

لقد أعلن رئيس الدولة أن شباب الوطن بخير. . وهذا حق وعلى أجهزة الإعلام أن ترتفع إلى مستوى مسئوليتها لتظل هذه الخيرية سمة شباب نعتز بهم وندخرهم لمستقبل يتأهبون لامتلاك زمامه[1].

التاريخ يعيد نفسه:

(عن عمرو بن العاص أنه سئل:

ما أشد ما رأيت قريشا بلغوا من رسول الله ﷺ؟

قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له:

أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟

فقال: «أنا ذاك».

فقاموا إليه. . . فأخذوا بمجامع ثيابه.

فرأيت أبا بكر محتضنه من ورائه. . وهو يصيح بأعلى صوته. . وأن عينيه ليسيلان. . وهو يقول: يا قوم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، حتى فرغ من الآية كلها. . .

. . . وهكذا أخبر الله عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه طلب من قومه الموادعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ . وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾.

وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله عباد الله. . ولا يمسوه بسوء. . وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته. . قال الله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى﴾ أى: إلا أن لا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة. . فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس. .

(١) علمت أن مجلس الشعب استجاب لنكرة أن تكون الفترة ما بين صلاة المغرب والعشاء فى رمضان خالية مما يعكر الجو الروحى.

وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية. وكان فتحا مبينا)[1].

وهكذا فعل بالدعاة عبر التاريخ..

وهكذا أيضاً كانت الحكمة أسلوبهم فى تناول الأمور تناولا يمكنهم من الاستمرار فى الدعوة بلا عوائق.. وإذا كنا نشدد النكير على ما يفعل بالدعاة عبر التاريخ.. فيجب أن ينصب كفل من هذا النكير على دعاة يزايلون الحكمة.. ويركبون العنف... فكانوا كالمنبت: لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

ونحن محتاجون إلى صياغة مثل هذه القدوة فى مجال الدعوة ليحيى الله بها قلوباً عليها أقفالها.. ويكفى الدعوة شرفا أن تشكل بالحكمة مثل هذا النموذج.. يراه الناس.. وعلى منواله ينسجون:

يقول الأستاذ محمد الراشد:

(الحقيقة أنه ـ وإن افتقد الدعاة فى هذا القرن صورة حكم إسلامى يصلح مثلا لتطبيق الإسلام ـ إلا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى فى بضع أشخاص من الدعاة. تتضح فيهم معانى الإسلام. ويكتسبون من الهيبة. ويبلغون الذروة فى الإيمان والتجرد، وتطبيق السنة الشريفة.

وهذا هو معنى القدوة فى صورتها البسيطة:

إن وجود القدوة الإسلامية يعنى وجود شخص يدرك الناظر إليه أنه مستقل فى فكرته وعقيدته، وسكناته وحركاته، عما حوله وعمن حوله، منفصل عنهم، تميزه الأبصار قبل المعاملة، بما تعلو وجهه من معالم السكينة والهيبة والحزم التى شاء أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره.

فيعوض بذلك عن صورة الحكم الإسلامى المفتقد.

ويكون بديلا لها. وبرهانا على أن الإسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الإنسانية الرفيعة.

أو بالأحرى: يكون برهانا على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير

---

(١) ابن كثير.

الإسلام)[1].

فإذا اتسعت الدائرة. وأثمرت الحكمة قاعدة من الدعاة المخلصين كان مجرد وجودهم وتعاونهم على البر والتقوى طريقا أمام أجيال تدخل فى دين الله أفواجا.

يقول الرازى:

(إن الارواح القوية الطاهرة إذا تطابقت على همة واحدة، قوى ذلك التأثر جداً وذلك هو السبب الأصلى فى أداء الصلوات فى الجماعات).

*****

(١) الرقائق :١٥٦.

تعقيب عام[1]

من أساليب الطغاة:

أولا : الهروب من مواجهة الحق.. بالدخول فى مهاترات يضيع بها الوقت والجهد معا.

ثانيـــاً: كلما ازدادت براهين الحق وضوحا.. كلما ازداد الباطل جموحا.

ثـالثــاً: محاولة تحريض الجماهير المخدوعة بافتعالتهم من شأنها أن تنفرها من الناصح الأمين.

رابعــاً: استعراض العضلات. والتنويه بما يملك الطاغية من قوة يستطيع بها أن يؤدب من يخالفه.

خامساً:تسليط جهاز الأعلام الموجه.. يمكر بالليل والنهار.. فى محاولات مكرورة لتأليه الطاغية.. الذى يتحرك على الساحة وحده.. بينما الجماهير المخدوعة تردد صوت سيدها!

هذه هى مقومات الطاغية التى يواجه بها خصمه من رجال الحق.. الذين يطلعون على كل هذه الأوهام كالفجر الصادق.. يبدد الله به الغيوم.. ويكشف به الغمة.. وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل .

الهروب من مواجهة الحق:

لأن طبيعة الطاغية منسوجة من خيوط العنكبوت: لحمتها الكذب.. وسداها النفاق.. فإنها لاتقوى على النهوض فى مواجهة الحق.. ومن ثم تلجأ إلى المناورة الرخيصة.. فى محاولة لجر الحق إلى مغارات مظلمة.. تتوه فيها المعالم. وتضيع الفرصة من يد الداعى إلى الله:

فعندما قال فرعون لموسى ما حكاه القرآن الكريم : **﴿فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾**..

وكان على فرعون أن يعطى القضية كل مداركه ليصل بشأنها إلى قرار.. يعلن به توحيد الخالق الذى خلق.. وزود كل مخلوق بخصائص تمكنه من أداء

---

(١) التعقيب على قصة موسى عليه السلام بصفة عامة .

دوره فى الحياة.. كان عليه ذلك.. لكنه هرب من مواجهة الحق.. فقال:

﴿ما بال القرون الأولى﴾

ماذا عن فلان وعلان من الراحلين.. ومن منهم فى الجنة.. ومن منهم سيق إلى النار؟ ولو أن موسى ـ عليه السلام ـ أجابه ـ وهو لا يعلم الغيب ـ لحقق بالإجابة غرض الطاغية فأثار حفيظة الأبناء حين يدين آباءهم وأجدادهم.. فيمكّن الباطل من كسب الجولة.. بالخروج بالحق من بحث القضية المطروحة.. إلى مسارب جدلية لا تفيد إلا الباطل الذى يتخذ منها ركوبا لتحقيق أمانيه فى إطفاء الأنوار والعبث فى الظلام!

الحق لايخدع:

ولقد كان موسى ـ عليه السلام ـ بالمرصاد.. فما يزال ممسكا بالزمام.. لتدور المعركة فى نقطة الضوء..

لقد لفت نظر فرعون إلى أن شأن القرون الأولى فى كتاب محفوظ.. عند خالقها سبحانه.. وتلك أمة قد خلت... لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.. والنبش فى القبور لن يفيد الواقع.. إلا تبصرة وذكرى..

فدع عنك هؤلاء الغابرين.. وافتح بصرك على الواقع بكل ما فيه من دلائل التوحيد إن كنت جادا فى الحوار فعلا..

وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه:٥٢ـ٥٥].

لقد أراد ـ عليه السلام ـ أن ينفض عن الفطرة ما غشى أصولها الزاكية من جهل وعناد حجبها عن رؤية الحق.. لعله يذكر أو يخشى يوم البعث وما فيه من حساب وعقاب. ولكن فرعون لم يكن من أولى النهى. الذين تنهاهم عقولهم عن الغرور.

هذا الغرور الذى حمله على رفض الانسجام مع حركة الكون.

﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب﴾ بها.. ولم يذعن لها.. وأضاف الكبر إلى التكذيب ﴿وأبى﴾.. فجمع بين الخستين!

وهكذا: كلما اتضحت معالم الحق.. كلما ازداد الطاغون نفورا.

تحريض الجماهير:

بدأ الباطل خطة الدفاع عن نفسه أمام هجمة الحق.. وذلك بتحريض الجماهير على النفور من الناصح الأمين. ثم محاولة استعراض عضلاته:

﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى﴾ [طه: ٥٧، ٥٨].

وعندما يحس الباطل بأن الحق قد عراه من ثوب الزور.. فبدأ صفرا على الشمال.. وفى هذه اللحظة تبدأ حملة التضليل.. لإثارة نفور الشعب وغضبه.. فهو يقول للمخدوعين به:

إن الأرض أرضنا.. ورثناها عن آبائنا.. وهكذا تقول الوثائق المزعومة وموسى يريد أن يخرجكم من أرضكم.. والخروج يساوى القتل.. وليس مع موسى إلا السحر. إنه السحر إذن.. وليست النبوة.. فى زعم الطاغية طبعا.

ولأن الباطل غير مقتنع بصحة ما يقول.. فإنه يحاول تغطية الإحساس بالضعف.. بهذا التحدى أن يختار موسى يوما يحدده هو.. يلتقى فيه الفريقان. موهما المخدوعين به أنه فى الموقع الأفضل.. والذى يمكنه من الحق.

دعاة الحق على مستوى المسئولية:

لا يلجأ الحق إلى التمويه والخداع.. وإلا سامت الباطل فى تهريجه.. ولم يكن له فضل عليه..

وإذا كان الباطل لا يكتفى بأكل أموال الشعب بالباطل. فيأكل أيضا كرامته بالباطل حين يزج به فى معركة خاسرة. فإن الحق يرتب أموره على أسس مختلفة تماما:

أولا: إنه ثابت.. لا تهزه الأعاصير.

ثانيا: لا يترك الباطل يتحرك على الساحة وحده.. طبق القاعدة القائلة:

إذا تبجح الأدعاء.. فلا تترك لهم الميدان خالا.

ثالثا: ثم هو لا يلجأ للشعارات.. التى يلجأ إليها الطغاة حين يطعمون شعوبهم هذه الشعارات بينما الخنازير تأكل اللحم الطرى!

وإنما يحاول حسم القضية من منطق المحافظة على كرامة الإنسان ودم الإنسان.. مهما كان..

وذلك قوله تعالى: **﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾**.

وأحس المبطلون بالضعف أمام هذه الصلابة فى الحق الذى يقترح أن تكون المواجهة فى يوم مجموع له الناس.. وفى الضحوة الكبرى.. وعلى أرض مكشوفة! ومن ثم راح فرعون يجمع كل ما يملك من وسائل الكيد: **﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾**.

ولقد كان المتوقع بمنطق البشر أن يسارع موسى - عليه السلام - إلى المواجهة ليحقق الغلب المضمون.. لكنه لا يقطع حبل الآمال فى إيمان القوم لآخر لحظة وهاهو ذا - ومن منطلق الإحساس بالقوة - يعطى الغريم فرصة مراجعة الحساب.. حقنا للدماء فى العروق.. وحفظا للماء فى الوجوه:

﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾ [طه: ٦١]. إن موسى - عليه السلام - لم يكن زعيما أرضيا.. يستعجل لحظة الانتصار الوشيك. بغض النظر عن الدماء المهدرة.. والكرامة المضيعة.

ولكنه رسول يدعو إلى الله تعالى.. ودعاة الحق لا يحاولون تغذية مشاعر الانتقام بتحطيم مخالفيهم.. لكنهم حراص على تحقيق غاياتهم فى هداية البشر. وتلك مهمتهم.

[النشامى.. يرددون صوت سيدهم]

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ . قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ . قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٢- ٦٦].

وهكذا رددت الحاشية صوت سيدها الذى قال آنفا: ﴿**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى**﴾

وتبدو خطة الأعداء بالتشويش المانع من رؤية الحق: فقد زعموا أن ما جاء به موسى سحر.. فهو زائل.. إلى جانب كونه منفرا..

ومن الذى يرضى لنفسه أن يتبع مذهبا زائلا.. معيبا فى نفس الوقت..؟ ثم هو منته به إلى الخروج من وطنه الأثير؟ إلى جانب سقوط الحزب الحاكم على أدمغتنا جميعا.. ويذهب الجاه.. والمال.. ليخلفكم أعداؤكم فيهما.. ولا نجاة للنشامى ـ وهم أصحاب المصلحة فى بقاء النظام العفن ـ لا نجاة لهم إلا بالوحدة.. وحشد كل إمكاناتهم.. لتكون لهم الكبرياء فى الأرض..

وكان أن خيروا موسى بين الأمرين.. فاختار أن يلقوا هم أولا..

فلما ألقوا حقق الإعلام الضال نجاحا مؤقتا على معسكر الحق.. وذلك قوله تعالى: ﴿**فأوجس فى نفسه خيفة موسى**﴾ والخوف هنا أمر طبيعى..

وقد يستغل المضللون هذه اللحظات الحرجة فيهرفون.. ويملؤون الدنيا بأهازيج نصر خاطف هو فى نفس الوقت بلاء للمؤمنين.. الذين تتداركهم رحمة من ربهم فيربط على قلوبهم.. وتبدأ الرغوة العائمة فى الانحسار.. ليبقى الحق أبدا:

﴿**قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾.

لاتخف ما زينوا.. فإن معك من مسوغات العلو ما يثبت الله به فؤداك.. وكيف تخاف ما جمعوا.. ومعك القوة التى لاتغلب.. والحصن الذى لا يضام.. والعين التى لاتنام؟

إن معك الخالق.. ومعه المخلوق.. فأى الفريقين خير مقاما؟

ما عليك إلا أن تواجه المشكلة بما ملكت يداك.. والنتيجة على الله تعالى..

إن متاعب الدعاة تنبع أساسا من الجهل بالموقف.. أو معرفته ثم الهروب من مواجهته.. لكن المتصدى للمتاعب.. يخفف من هذه المتاعب..

ولا خير فى فكرة لم يتجرد لها صاحبها.. لتكون له رداء.. وتكون له كفنا! وقد تكون إمكانات العدو كثيرة تحجب الأفق.. ملايين الأتباع.. وأشتات من أسلحة الهجوم والدفاع..

وهكذا بدأ سحرة فرعون.. مع كل واحد حبل.. وعصا.. ليكون ذلك أهيب فى صدور المؤمنين..

ولكن السيف الشجاع إذا كان خلق الغمد.. فإنه شديد الضرب.. ولا يضر السيف قصره.. لأن الجمرة المتقدقة لا يضرها قصرها..

قوة الحق من ذاته:

ونلاحظ هنا من قوة الحق أنه يستمدها من عدالة قضيته.. وإن بدا أقل عدة وعددا:

وقد ظهر ذلك لما قالوا تحديا: ﴿**إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى..**﴾

فقال لهم: بل ألقوا..

وقد كان بهذه الثقة أقوى من عدو الحق:

فلم يلجأ موسى ـ عليه السلام ـ للتشويش على الباطل.. بمثل ما فعل.. ولكنه ذكر شبهة الباطل.. ثم كر عليها.. فلم يبق لها أثرا.. ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة**﴾.

وهنا استحق موسى ـ عليه السلام ـ ذلك التشريف المشتق من معدن الحق:

إنك.. بكاف الخطاب.. وما تدل عليه من حضور المخاطب..

أنت.. بضمير الفصل المؤكد للنسبة.. وبلام التعريف الكاشفة عن تميزه وتفرده (الأعلى)

أجل لست فقط «عاليا» وإنما أنت الأعلى..

وأين هذا من الطاغية الذى يبنى مجده المزيف على شفير من الرمال.. ومن ورائه الحرس المأجور المأزور.. المرتزق؟

ولا تكن حجرا:

يقول العارفون: إذا لم تكن بئرا.. فكن حبلا.. وإذا لم تكن حبلا.. فكن بكرة.. وإذا لم تكن بكرة.. فعلى الأقل: لا تكن حجرا يعبث بك العابثون الذين يتلهون بإلقائك فى البئر هزوا ولعبا!

ولقد كان السحرة كذلك.. وهم فى قبضة فرعون..

ولكن يبدو أن خميرة الإيمان كانت تتخلق فى قلوبهم.. مع الأيام.. فلما حانت ساعة الخلاص.. كان الميلاد المبارك..

إن الآيات الكريمة لا تقول هنا: فألقى موسى عصاه.. ولكنها تقول مباشرة:

﴿فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾.

لقد طويت لحظة إلقاء موسى.. لتتحدث الآية عن إيمان السحرة الذى لم يكن مفاجأة إلا لفرعون وحده!

ويرفع الستار عن أعداء الأمس.. يديرون ظهورهم للزعامة الفاسدة.. الكاسدة.. ثم يقفون جندا لحساب الحق.. فى لحظة يقول عنها العارفون:

هكذا الطغاة يرون كل دلائل الحق.. ولكنهم لا يطيقون تصور الاحتمال الصحيح لطول ممارستهم للباطل.

أنا.. ونحن:

من عادة الطغاة أنهم يكرهون النور.. ويفضلون أن يعملوا فى الظلام:

إن الأنوار تكشف ضعفهم.. وخيانتهم.. وفى نفس الوقت تكشف ما يتحلى به المحقون من فضائل تأخذ بالألباب..

ومن ثم يطفئون الأنوار ليعم الظلام.. فتتحرك الأشباح.. بلا أرواح.

وتتصادم الجسوم.. فيضيع الجهد.. والوقت.. ويظل الطاغية ممسكا بالخيط يحرك به الشخوص الحائرة.. فيعز الإصلاح إذا عزت الرؤية الكاشفة..

وتظل «الأنا» سيدة الموقف.. وتغيب «نحن».. ليغيب معها الأمل فى الإصلاح.. ولله در الحكيم القائل:

إذا كان فى «أنا» (نون) واحدة.. فإن فى (نحن) (نونين)..

ومن ثم.. إذا حسبنا النون من النور.. فإن (نحن) أكثر نورا وإشراقا.

الطغاة لا يسلمون بالهزيمة:

يترنح الطاغية كالطائر الذبيح.. ولا يسلم بالهزيمة التى توفرت دواعيها.. وهاهو ذا «فرعون» الزعيم المهيب يهدد السحرة - وبعد فوات الأوان - متهما إياها بالتواطؤ مع موسى:

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

إن الطاغية هنا يرمى السحرة بتهمة التآمر عليه مع موسى.. وهو أول المكذبين بهذه التهمة النكراء..

وهكذا يكذب المضلون.. ثم ينتهى به الأمر عند تصديق أنفسهم..

والأدهى من ذلك أن الظالم يعطى نفسه صلاحية التفكير عن قومه.. ومن ثم فليس من حقهم أن يفكروا فى قضية ما.. ولا من سلطتهم أن يتخذوا بشأنها قرارا إلا بإذن خاص منه!! **﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾**

وما أكثر التهم الجوفاء.. بل ما أكثر ما يتظاهر به المضلون من ادعاء.. فى محاولات يبقى بها الكرسى من تحتهم.

ولكن.. ما أشد اللطمة التى تأتيهم من قبل أناس رباهم الطاغية.. فإذا هم يلعنونه.. اليوم بنفس الألسنة التى مجدوه بها بالأمس.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.[طه: ٧٢، ٧٣].

لقد لقنوه درسا فى الثبات على الإيمان.. كان باكورة الجزاء الإلهى.. ثم كان طعنة نجلاء فى قلبه.. لم ترحه بالموت حتى لا يرى ما لم يكن يتوقع..

ولكنها تبقيه حيا ليرى حرس الأمس.. يديرون ظهورهم للجلاد.. قائلين:

(لابد أن نفتح النوافذ. لنستقبل النور والهواء:

على أن نرى النور بأعيننا.. لا بأعين غيرنا، وأن نتنفس الهواء برئاتنا. لا بالرئات التى تصنع لنا.. وأن نفتح النوافذ.. وأن نغلقها.. حين نريد نحن.. لا حين يراد لنا.. وعلى الصورة التى نختارها.. لا على الصورة التى تفرض علينا).

نهاية الغرور:

وهكذا صنع الإيمان من السحرة خلقا آخر.. وبقيت القصة حديثا يروى شاهدا بتمام نعمة الله على موسى وعلى بنى إسرائيل.. حين سرى بهم فنجاهم الله تعالى.. وأغرق عدوهم..

وتوالت النعم المادية: منًا وسلوى.. والمعنوية: غفرانا ورحمة..

فى الوقت الذى طفت فيه جثث الطغاة. على سطح الماء. عبرة للطغاة..

سامرى هذه الأمة:

وتبقى النعمة ماثلة للعيان: نعمة الهداية للإيمان.. واندحار الطغيان.. وهو الدرس الذى ينبغى أن نتعلمه اليوم.. ونحن نعبر المحنة الطارئة:

فلا ينبغى لأفاك أثيم أن يخدعنا بعد اليوم:

لقد رأى السحرة الحق علما.. وعملا.. لم يتعلموه فى محاضرات جوفاء فى أروقة الحزب الحاكم..

ولم يكن لديهم مصطلحات وألغازا يتلقونه بألسنتهم.. ثم يقولونه بأفواههم.. ومن ثم كانت الصحوة الكبرى..

فلتصح أمتنا على صوت النذير.. قبل أن ينجح «سامرى» هذه الأمة فى صنع أصنام من أوهامه تتجدد بها المأساة..

ثم تدور فى حلقة مفرغة تستنزف طاقات مرصودة للبناء والتعمير.. لا للخراب والتدمير.

*****



رجال ومواقف

*هذه بعض النماذج العملية من السنة المطهرة ومواقف الصالحين.. نختم بها تلك الأحاديث لعلها أن تكون دليلا على الطريق يجلى للدعاة طريقهم .. ليأخذوا حذرهم .. وليأخذوا أيضا سمتهم إلى ما يريدون من كمال.

من درر الحكمة النبوية

كان ﷺ وهو الصادق الأمين.. كان صادقاً وأمينا فى تعبيره عن الإسلام المِسْماح.. حين يفتحُ قلبه المتراحب ليستقبل وجيب قلوب تهرع إليه فى ساعة العَسرة.. فإذا هو يسعها بحلمه وعفوه.. لا يقطع رجاءها فيه.. على ما كان منها من خطايا فى حق الإسلام..

ذلك بأن شخصه لم يكن طرفا فى النزاع حتى ينتقم لنفسه.. وإنما كانت الدعوة محور نشاطه: يُحِبُ فيها ويكره فيها.. ويسامح أيضا من أجلها..

وبحكم موقع الصداره الذى يشغله.. كان إحساسه بمصلحة الدعوة قويا..

وبحكم رتبته العالية فيها كان يرى رقعة من الواقع أوسع.. وربما ضاق أصحابه يوما بما يشاهدون.. لأن دائرة الرؤية لديهم دونه ﷺ.. ومن ثم يسألون.. فيُجابُون بالحكمة وفصل الخطاب..

وذلك بعضُ ما يفهم من هذا الموقف الذى نحن بصدد التعليق عليه: عن ابن عباس رضى الله عنهما: أنه لما اشتكى عبد الله بن أبى سلول. عَادَهُ رسول الله ﷺ. فطلب منه عبد الله أن يصلى عليه إذا مات. ويقوم على قبره.

ثم إنه أرسل إلى الرسول عليه الصلاة السلامُ يطلبُ منه قميصه ليكفَّن فيه فأرسل إليه القميص الفوقانى. فردَّه. وطلب الذى يلى جلده ليكفَّن فيه. فقال عمر رضى الله عنه ـ:

لم تعطى قميصك لهذا الرجْس النجس. فقال عليه الصلاة والسلام: **«إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا. فلعل الله أن يُدخل به ألفا فى الإسلام»**.

وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه. أسلم منهم يومئذ ألف!!

فلما مات جاءه ابنه فقال ﷺ لابنه: **«صل عليه وادفنه»**.

فقال: إن لم تصل عليه يا رسول الله لم يصل عليه مسلم. فقام عليه

الصلاة والسلام ليصلى عليه. فقام عمر. فحال بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلى عليه فنزلت هذه الآية: ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون**﴾[1].

والموقف هنا حساسٌ للغاية:

فصحيفة عبد الله بن أبىّ سلو مع الإسلام سوداء مظلمة..وما زالت مآسيه تزكم الأنوف وتصك الأسماع..

وفى نفس الوقت فولده عبد الله ـ رضى الله عنه ـ من جلَّه الصحابة..

وقد نجح فى أشق امتحان يتعرض له إنسان حين باع أباه.. واشترى الإسلام.. وتحمل مسؤولية ذلك الاختيار.. حين عرض على الرسول ﷺ أن يقتل هو.. وبيده.. أباه.. إن كان ولا بد من قتله..

وبحكم فطرته فهو ميال إلى أبيه.. منسجم مع أمانيه طبعا..

إلا أن تكون معاكسة للإسلام..

وإذن فهو مَوْطنٌ تصحُ فيه المجاملة التى لا تغيّر من واقع الرجل.. ولا من مستقبله..

وفى المجاملة متسع للتلطف بالآخرين:

لقد بشّر أهل الكتاب بالغلب.. بعد الهزيمة ولكنه لم يكن يجامل على حساب الحقيقة.. فهو هو ﷺ الذى واجههم ـ مع تلطفه بهم ـ واجههم بالحق المرّ فى قوله تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**﴾.

فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة الرسول نفسه.. وما جُبلت عليه من إنسانية لم تكن تتعامل منذ طفولتها إلا مع المحاويج.

فكان يقْرى الضيف.. ويحمل الكل.. ويكسبُ المعدوم.. ويعين على نوائب الحق.. تبين لنا كيف كان ﷺ رحب الصدر يستوعب آلام البشر..

فإذا وُجد من هؤلاء البشر من كان له سابق جميل.. كان ردّ الجميل إليه مفروغا منه.. وهو هو بعينه عبد الله بن أبى.. والذى كسا عمَّه العباس وهو

---

(١) الرازى: تفسيرسورة التوبة.

فى الأسارى حلة تخيَّرها له!..

وفوق ذلك كله.. لقد استشرف ﷺ بحسه البصير ما يمكن أن يترتب على التسامح هنا من فوائد.. لو تمت المجاملة..وحقق أمنية ابن أبى فى الفوز بقميصه ليكفن فيه..

بل إنه تحمل من دلال عبد الله.. والذى ألحَّ فى طلب القميص الذى يلى جلده الشريف.. وهذا ما أثار حفيظة عمر ـ رضى الله عنه ـ حين أبدى وجهة نظره.. مشفوعة بدليلها:

(لِمَ تُعطى قميصك لهذا الرجس النجس..)؟؟

وحماس عمر ـ رضى الله عنه ـ هنا.. محسوب له.. لا عليه:

فهو يبذل فطرته التى لا تأخذها فى الحق لومةُ لائم: وكان طبعيا أن يأخذ هو موقعة متسائلا ـ وبقوة ـ عن سر هذا الذى يراه.

ولقد كان فى شدَّته قويًا.. لكنه كان قبل ذلك نقيًا:

عاش مع القوة.. والنقاء متمثلين فى الرسول ﷺ فلا غرْو.. أن يبذل طبيعته التى استقاها من مصدرها الأمين..

مشفوعة بدليلها الذى يُشير إلى أن تكريم القيادات الرديئة الخائنة.. تنويهٌ بالخيانة.. وتمكنٌ لأصحابها.. وعلى حساب الأطهار الأبرار..

ولقد حصحص الحق.. وظهر الصبح.. فلنجعل لِمُجامَلة الماكرين حداً..

لأنه إذا أظهر الحق.. لم يبق معه غيره!

بهذه الروح تقدم عمر ـ رضي الله عنه ـ لا باستجوابه.. ولكن بسؤاله..

وإذا بَدا فى حركته معنى الانْدفاع.. ففى النهاية متى ظهر الحق. يكون الانصياع.. وهذا ما حدث بالفعل .. عندما جاءه الرد الواثق المطمئن:

«إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا. فلعل الله أن يُدخل به ألفا فى الإسلام».

وفعلا.. كسب الإسلام من وراء المجاملة ألفا...

ألفاً. كانوا بالأمس أعداء.. ثم صاروا من بُعد أولياء..

أولياء.. يعرفون من كيد النفاق.. ومكر الأعداء ما يجعل لدعوتهم إلى الإسلام مذاقا خاصا قد لا نجده عند داعية نشأ ابتداء فى أحضان الإسلام.

وبدا للدعاة.. وإلى يوم القيامة واحد من ملامح المنهج الإسلامى فى الدعوة هو: ضرورة أن يحسن الداعية قراءة الواقع.. وأن تكون له نظرة مستقبلية تستشرف الغد.. وتدور مع مصلحة الدعوة.. وتعرف وفى الوقت المناسب.. كيف تَهُزّ فى أتْباع العدو الكاشح ضمائرهم ليكونوا معنا.. عليه!

وهذا ما فعله ﷺ هنا:

لقد أرخى ﷺ لابن أبّى من حبال الأمانى.. وبينما عمر - رضى الله عنه - يتلمظ هناك.. كان ما توقعه ﷺ.. عندما كُشف الغطاء لأتباع ابن أبى فأداروا الموقف فى أذهانهم فتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر:

وذلك ما تشير إليه الرواية لمّا رأوه يطلب القميص.. بل ويطلبه بإلحاح.. رجاء أن ينفعه.. وعندئذ ضبطوا رئيسهم متلبسا بالتناقض: إذ كيف يعادى الإسلام.. ثم يطلب نفع قميص رسوله؟...

ولما قام ﷺ ليصلى عليه.. كانت لعمر - وبالذات - حركة سريعة حال بها بينه ﷺ. وبين القبلة حتى لا يصلى عليه..

ونزلت الآية الكريمة عندئذ:

﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾.

أما بعد: فمن دروس الموقف:

١- فقد تقرر مبدأ مجاملة الأجانب.. أحيانا.. وبمقدار.. إن للمجاملة حدودًا.. تقف عندها.. لا تتجاوزها.. وذلك ما وضحته الآية الكريمة الناهية رسوله عن الصلاة على أحد منهم مات أبدا.

٢- إنسانية الداعى التى تُشعر المدعو بأنه إنسان.. وهى إنسانية عامة تشمل المسلم.. والكافر.

٣ـ حق الفرد المسلم فى النقد شريطة أن يكون بنَّاءً.

٤ـ ثم عودته إلى الحق بعد ما تبين.

٥ـ تبقى للمجاملة مساحة يتحرك فيها الداعية. بحيث لا تضيف إلى المدعو الكافر قوة يهددنا بها.. بل تضيف إلينا رصيدا يَثْقل به فى النهاية ميزانُنا..

وتبقى وحدة الأمة دائما هى اللواء الذى يجمعنا.

يقول علماؤنا: [لسنا أمة كالأمم تربط بينها اللغة.. ففى كل أمة خيرٌ وشرير، ولسنا شعبا كالشعوب يؤلف بينها الدم.. ففى كل شعب صالح وطالح.. ولكننا جمعية خيرية كبرى:

أعضاؤها: كل فاضل. من كل أمة.. تقى نقى.

تجمع بيننا التقوى.. إن فَصَلَ الدم.. وتوحد بيننا العقيدة.. إن اختلفت اللغات.. وتُدنينا الكعبة.. وإن تناءت بنا الديار.

أليس فى توجهنا كل يوم خمس مرات إلى هذه الكعبة.. وإجتماعُنا كل عام مرة فى عرفات.. رمزا إلى أن الإسلام قومية جامعة. مركزها الحجاز العربية.. وإمامها النبى العربى. وكتابها القرآن العربى] ا.هـ.

*****

تجاوب القرآن مع الفطرة

من قوانين النفس الإنسانية أنها لا تصبر على طعام واحد.. ولا على نسق من الحياة واحد..

ولقد عبَّر بنو إسرائيل عن هذه الطبيعة بما حكاه القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١].

ومن حسن التعامل مع هذه الطبيعة: التنقُّل فى دعوتها من حال إلى حال... ومن فنن إلى فنن..

وهذا بعض مانفهمه من آى القرآن الكريم:

فمع أن الحق لُحمتها وسداها... إلا أن تصريف القول كان واحدا من أساليب دعوته إلى الخير.. فلعل الجديد أن يُفيد.. وذلك خيرٌ من فرض مَنهج واحدٍ ربما لا يلبى فى كيان المدعو حاجة..

يقول الله تعالى معللا أسباب تلوين الخطاب:

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ١٠٥].

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

ولكن: هل فقه القوم.. أو علموا.. وشكروا؟

كلا..! لقد كان ردُّ الفعل إزاء هذه النعمة: نفورا.. وكفورا... وإعراضا وذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾[الإسراء: ٤١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[الأنعام: ٤٦].

ومن التطبيقات العملية هنا ماجاء على لسان نوح عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٥ : ٩].

وتأمَّل هذا الجحود وذلك الجمود.. ومع ذلك.. فما يزال تلوين الخطاب. أى تصريفُه واحدا من أساليب الدعوة المؤثرة فى قلوب القلة الواعية فى خِضَمّ الكثرة الباغية.

لأن آية سورة الإسراء تقول﴿فأبى أكثر الناس﴾، وإذن فقد بَقِيَتْ هناك قلة راغبة فى الخلاص.. وعلينا أن ندور حولها بفنون الخطاب أملا فى حسن المآب.

ومن تلوين الخطاب إلى تلوين الفعل الذى يمكن أن يكون: وليمة يُدعى إليها الملأ من القوم..وربما كانت خدمةٌ اجتماعية يؤدِّيها الداعية ليظل حيا فى بؤرة الشعور أو يُسكت بها ألسنة العابثين على الأقل!

ومن النوع الأول ما فعله رسول الله ﷺ والقصةُ برمتها مذكورة فى تفسير ابن كثير رحمه الله لسورة الشعراء - والتى نلخصها فيما يلى:

لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله عليًّا وأمره أن يصنع طعاما ولَبَنًا ثم يجمعَ له بنى عبد المطلب ففعل... فلما أكل القوم: أراد ﷺ أن يكلمهم فَبدره أبو لهب إلى الكلام... فقال : لهذا سحركم صاحبكم... فتفرقوا ولم يكلمهم.

ولما كان الغد. أمره ﷺ بأن يكرر الوليمة التى انتهت إلى مثل ما انتهت إليه الأولى. فأمره ﷺ بإعداد وليمة .. وللمرة الثالثة.. ثم - وبعد الأكل - قال لهم:

«يابنى عبد المطلب: إنى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به،إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة» ثم تفرق القوم.

فماذا فى هذا الموقف من دروس للدعاة:

١ـ إن الرجل الذى وقف على جبل الصفا يدعو قومه إلى ما يحييهم.. يُغيرِّ الخطة اليوم بهذه الوليمة الجامعة للملأ من قومه.. وهم أصحاب القرار والناس لهم تبع.

٢ـ والداعية هنا ينفق الضرورى من ماله لتكون كلمته مسموعة وهاهته مرفوعة.

وليس هو بالذى يأكل على كل مأدبة فَيَفْقد بَهَاءَهُ بهذا الابتذال.. إنه يعيش للدعوة.. ولا يعيش بها.

٣ـ لم يشأ ﷺ أن يكون الحفل خطابيا.. وإلا لما حضره أحد.. ولكنه يحرك الشهية بوليمة.. تُستغل لصالح الدعوة.. وفى غفلة من نوازع العناد.. ثم هى حركة قد تُربك المعاند قبل أن يرتِّب خططه!

٤ـ وإذ يتنكر أبو لهب للمبادرة السِّلمية فكان «محطة التشويش» فيكفى أن فى داخل المدعويين إنكارا مكبوتا لهذا المسلك المجافى لمروءة العرب وهو كسب للداعية على أى حال.

٥ـ والحديث بعد الطعام.. ذو شجون .. بما واجه النفس وهى على سجيتها.. وفى لحظة استرخائها.. فلم تحسَّ بضغط ولا إكراه.. فإما إسلام عندئذ.. وإما انصراف.. أو سكوت..ألا وإن سكوت القوم خجلا.. ربما ألجم ألسنة الدهماء.. بعدما سكتت الطليعة!

٦ـ ثم هى فرصة تتحقق بها «الشهادة على الناس».

فالرسول ﷺ «شهيد على هؤلاء»... ولن يكون كذلك إلا بالاقتراب منهم.. بل ومعايشتهم.. ومعرفة أحوالهم والسنن التى تحكم تصرفاتهم.. عن طريق هذا اللقاء... وإذا ظل المدعو على شاطئ .. ونحن على الآخر .. يَفْصلنا موج غاضب.. فلن تكون معرفة.. ولن يكون وفاق.

٧ـ ومن دروس الموقف أيضا:

أننا قد نضيق من الدنيا واسعا.. حين نَحْصُرُ جهودنا.. فى كلمات قصار أو طوال.. أقولها هنا أو هناك..

مع أن الساحة واسعة واسعة.. حافلة ـ فى ظل الإيمان ـ بآلاف الصور التى يمكن أن تكون وسيلة فعَّالة من وسائل الدعوة.. أتَاحَها الله تعالى لنا.. ويبقى أن نفعل ما يريده تعالى منا:

فتبسُّمُك فى وجه أخيك.. صدقة.

وإفراغك من دلوك فى دلوه.. صدقة..

وتبرعُك ولو بفرسن شاة.. صدقة..

كلها.. كلها.. على ضآلتها حسناتٌ يثقل بها ميزانك..

وقد رووا: أن جارا نصرانيا لأبى حنيفة ـ رحمه الله ـ كان كثير الإيذاء له... وسمع يوما أن الشرطة اعتقلته..

ولقد كانت للداعية هنا.. لأبى حنيفة .. كانت له صلات اجتماعية طيبة بكل الرجال.. وفى كل المرافق.. فركب الرجل حماره وتوجه إلى قسم الشرطة فشفع له.. حتى أخرجه من السجن إخراجا..

ثم كان هذا الحوار السريع الذى فرضه الموقف.. والذى بدأه النصرانى بقوله مندهشا؟

ما الذى حملك على هذا؟ فقال له أبو حنيفة:

إنما حملنى على ذلك دينى.. دينى الذى من قواعده: أن نرد على من عصى الله فينا.. بأن نطيع الله فيه!

عندئذ أعلن الرجل إسلامه.. بهذه الأسوة الحسنة بهذه الخدمة الاجتماعية التى قلبت حياة الرجل رأسا على عقب.. ثم أنقذته من شقوة الأبد!

٨ ـ وتأمل تكليف على ـ رضى الله عنه ـ بالذات.. لإعداد الوليمة:

إنه درس للطلائع فى مجال الدعوة أن يحسنوا اختيار أتباعهم.. ومن يتحدثون باسمهم..وإلا فقد يكون الداعية على أوفى معانى الإخلاص.. والأمانة.. والوفاء.. لكن رفاق السلاح ليسوا على مستواه: إخلاصا.. وأمانة... ووفاء.

ومن ثم يحرث فى البحر.. أو يحرث فى الأرض.. لكنَّ المتعجلين من حوله يعيدون المخروث.. كما كان!!

إن دوافع المستكبر.. ليست هى دوافع المنافق.. ولا العاصى. والعاصى

المحترف.. ليس كالعاصى الذى فُرِضت عليه المعصية.. وعلى المسؤول فى حقل الدعوة أن يُحسن الاختيار.. لتتكامل الجهود.. وصولا إلى مانصبوا إليه.

وعلى هذا الأساس النبوى سار علماءُ أجلاء.. ساروا عبر الطريق الطويل.. متجردين للحق.. باذلين فى سبيله.. فارِّين إلى الله من مواطن الابتذال.. إيثارا للعزة المشتقة من الإيمان..

ولقد بَلغَوا المدى حين اشترطوا ألا يصحبهم فى رحلة الدعوة إلى الله تعالى إلا من اعتز بدينه.. وأنفق الفضل من ماله.. زاهدا فيما عند الناس - ليستطيع أن يُقنع هؤلاء الناس:

[قال ابن الجوزى - رحمه الله -: قال ابن عقيل: رأينا فى زماننا أبا بكر القفال.. فى أيام «القائم».. رأيناه إذا نهض لإنكار منكرا استتبع معه مشايخ لا يأكلون إلا من صَنعة أيديهم كأبى بكر الخباز وهو شيخ صالح صار ضريرا من طول اطلاعه فى التنور.

وتبعه جماعة ليس فيهم من يأخذ صدقه ولا يُدنَّس بقبول عطاء - أى هدية من رجال الحكم - صوامون النهار قوامون الليل أرباب بكاء.. فإذا تبعه مُخلط ردن وقال: متى لقينا الجيش بمُخلط.. انهزم الجيش !!](1)

أجل: إن الداعية جندى فى معركة الحق.. فإذا فقد الإخلاص فقد سلاحه.. وفقد وجوده معه!!

استطراد:

قد يختلف الدعاة فى وجهات النظر.. فلكل وجهة هو موليها.. بل قد يتعاتبون .. ولكنه عتاب المحبين:

عاتب محمد بن واسع مالك بن دينار قائلا: قبلت هدية الحاكم؟

فقال له: أطلب زيادة حسناتى؟

فقال له: وكيف ؟!

قال: اشترى بها عبيدا. وأعتقهم.

فقال ابن واسع: هل بقى قلبك مثلما كان؟!

وهكذا.. رمع نبالة المقصد.. ولكنه لم يشفع له!

(١) تلبيس إبليس ١٤٥.

صورة من حكمة الشيوخ

وقف المهندس الزراعى الشاب يخطب فى جمهور من الغلمان غفير.. وكان استشهاده بالآيات والأحاديث والنصوص وفيرا.. وحاضرا..

غير أنه كان يمر على النصوص كالنسمة العليلة.. لا تمتص من الزهرة الجميلة رحيقها..

وقلت فى نفسى: ما أحوج هذا الفتى إلى وقفات يكتشف فيها بعقله مافى هذه النصوص من فصوص الحكم.. وحبذا لو جنح به عقله إلى مجال تخصصه. إذن.. لأفاد الدعوة كثيرا..

وكانت لنا جلسة بعد الحفل.. كان من الضرورى أن تكون فرصة يعلق فيها الشيخ على ما رأى.. وما سمع.. فكان هذا الحديث: روى أنه:[بينما كانت امرأة عجوز تمشى الهوينا. .إذ مر بها أعرابى شاب يقود بعيرا محملا.. فقالت: إلى من تحمل الهدية؟ فقال: ليست هذه هدية.. وإنما هى هدى !!قالت: وما هُداك؟ قال: كتاب فى الدليل على وجود الله.. فضحكت العجوز فاستغرب الأعرابى الشاب قائلا لها:

ألم أنبئك بالصريح؟ فما هذا الضحك يا أماه؟! قالت: يابنى. . أنا لست أضحك منك.. وإنما أضحك ممن لا يُقرّ بوجود مولاه بعد مشاهدة هذا الكون وما فيه من الآيات.. ثم هو يقنع بحمل بعير؟؟!

فقال لها: أما علمت: أنه إذا عميت البصائر فلتقرأ النواظر؟! قالت: صدقت!].

وهنا موقف من مواقف الحوار بين الأجيال.. هذا الحوار المنتهى بالحق فى موضوع النزاع.. ليظل تواصل الأجيال قائما تدعيما لهذا الحق..

فالشاب هنا مشغول بالعلم وتحصيله.. ثم هو مشغول من العلم بأشرف قضاياه وهو وجود الله تعالى ووحدانيته.. إلى الحد الذى جمع فيه حمل بعير بيانا لذلك وتأكيدا..

وكانت نقطة الخلاف بين الجيل السابق والجيل اللاحق هنا هو أن العلم

النظرى ـ على أهميته ـ ليس هو لغة التخاطب الوحيدة فى هذا العصر . . وإنما وسيلة الدعوة الأخرى هى:

النظر فى الكون العريض . . وكم فى هذا الكون من آيات . . قادرات على الإقناع . . وإن وقف العناد أحيانا حجابا حاجزا دون الاعتبار . .

وإذا كان ولابد من مواصلة الجهد . . فعلى صعيد الكون المبسوط والذى يعطينا بالتأمل كل يوم جديدا . .

ولم يسلم الفتى بوجهة نظر العجوز . . . لافتا نظرها إلا أنه إذا طمست البصائر فلم توجه طاقتها إلى الأعماق . . فلا أقل من أن نقرأ . . ونؤلف، وإن كان المجهود نظريا . .

ولم تشأ المرأه إلا التسليم . . بعدما تبين له الحق قائلة له: صدقت:

ولكنك تلاحظ أن هذا الخلاف محكوم بأدب الإسلام العالى:

فالفتى لا ينفعل غاضبا من مجرد الاختلاف بين وجهتى النظر . .

ولكنه يتساءل فى أدب عن السبب. ثم يستشعر العجوز أمه قائلا: يا أماه . .

ولا يفوت العجوز أن تعتذر إليه بأنها لم تضحك منه . . وإنما تضحك له . . لا تبكى منه . . وإنما تبكى على زمان صار وجود الله تعالى محتاجا إلى كتب تدل عليه . . وكل مافى الكون دليل عليه!

وينتهى الموقف . . لكن يظل فى وعينا قبس منه هو:

إن هذا الكون على اتساعه مازال حقلا بكرا . . يمكن أن تستغل آياته لتعرض على البصائر . . سبيلا إلى الهداية .

ذلك بأنه نظر فى صنع الله . .

فى قوانين الحركة مثلا وكيف كان هذا القانون واحدا فى السماء والأرض . .

ثم . . كيف كان تركيب الذرة التائهة . . هو تركيب المجموعة الشمسية أى أن العجوز هنا توجه النظر إلى تأمل صنع الله . . أى: مساحة أوسع من الدلائل . . هى من صنع الله تعالى القادر .

عامة للكل . . ولغة العصر فى نفس الوقت . .

إنها امرأة «عجوز» أتصورها ممثلة اليوم للجيل القديم . . يقدم تجربته للجيل الجديد لعله يتذكر أو يخشى . . هذا الجيل الذى قيل عنه [إنهم لم يفرطوا فى شبابهم . . عملا بقول الرسول ﷺ: **«خذ من شبابك لهرمك»**.

كما أن عطاءهم لم يتوقف مع تقدمهم فى السن .

فالمخ شأنه شأن بقية الأعضاء فى الجسم يخضع للقاعدة المعروفة: [العضو العامل ينمو . . والعضو العاطل يضمر].

ومع أن المخ يفقد بعض خلاياه مع تقدم السن إلا أن الخلايا الباقية تزيد من تفرعاتها وتشابكها ومواصلاتها العصبية عند نهايتها حتى تعوض وظيفيا كمَّ الخلايا التى يفقدها الإنسان مع السن والشيخوخة .

وذلك فى حالة تشغيل الذهن واكتساب الخبرات المختلفة ومحاولة التعليم والتعلم فى السن الكبير كى يحافظ الشيخ على ذاكرته . تماما مثل فريق الكرة:

إنه عندما يطرد أحد لاعبيه خارج الملعب ، فإن الباقين يضاعفون مجهودهم فى أداء بطولى يكسبون به المباراة . على الرغم من نقصانهم لاعبا] ا هـ .

ونقول أيضا: إن الدعوة كما هى فى حاجة إلى الذاكرة الحافظة الواعية . . لتمد الداعية بما تتطلبه المواقف من معلومات . . فإنها أحوج إلى العقل المتوقد . . القادر على الاستنباط وإن قل رصيد صاحبه من العلم . .

ومادام ذلك العقل حاضرا . . جاهز للغوص وراء اللآلئ فى الأعماق فإن فرص النجاح قائمة . . وإن قلَّت كمية المعلومات:

ونذكر فى ذلك تلك الليلة التى التقى فيها «عالم النحو: الخليل بن أحمد . . ورائد الأدب: ابن المقفع .

لقد التقيا فى «قمة ثنائية» وسهرا حتى الفجر . . يتجاذبان أطراف العلم . .

وفى الصباح سأل طالب علم الخليل ماذا رأيت فى ابن المقفع؟ فقال: رأيت رجلا علمه أكبر من عقله . .

ولما سئل ابن المقفع عن الخليل بن أحمد قال: رأيت رجلا عقله أكبر من علمه!

وإذا يحقق العالمان مقاصد الدعوة بتكاملهما.. فإن ذلك يحملنا مسؤولية التقاء التخصصات على صعيد الدعوة.. فى تكامل يحقق الله به آمالنا..

وحين نحتاج إلى العقل الكبير: يستنبط.. ويوازن.. ويختار.. فحبذا لو كان ذلك الجهد فى تخصص الراغب فى الدعوة ومنهم مهندسنا الزراعى موضوع حديثنا!

كان عليه أن يخدم الدعوة لا بما يحفظ من معلومات هى أكبر من عقله.. وإنما بما يملك من استعداد فى تخصصه.. وجميل أن يستمع الجمهور منه هذه الموعظة:

أيها الإنسان.. لماذا الغرور.. وأجمل ماتلبس من حشرة.. دودة القز.. وأجمل ما تزدان به من حيوان دقيق.. يمنحك اللؤلؤ والمرجان..

وأكمل ما تطعم من حشرة هى: النحلة.

﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ لقد كان العسل معروفا قبل ظهور الإسلام.. وبعد الإسلام اكتشف الطب الحديث أهميته القصوى بالنسبة للقلب.. والأعصاب.. وتوفير الطاقة..

فأين الإنسان المعتبر.. المعتمد على نفسه فى تحصيل قوته.. ومساعدة الآخرين أسوة بهذا الخلق من خلق الله تعالى؟

وهكذا يكون الداعية.. المتخصص فى الزراعة.. وهكذا تحدث المجربون من علمائنا فخاضوها معركة مع الملحدين منطلقين من مشاهد الطبيعة فقالوا: أيها المعاندون الطالبون الآيات كى تؤمنوا.. فهل خرق السنن بهذه الآيات..

هل إذا تأخر غروب الشمس دقائق.. وهل إذا انشق القمر ثوان.. هل هذا أدل على قدرة الله تعالى من انتظام الكون.. واطراد نظامه: **﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾**.. ألا إن هذا النظام أدل على وجوده تعالى من بضع دقائق يختل فيها الكون.

إن هذا النظام نفسه.. أدل عليه من خرق النظام!!

وما زلت بهذا المهندس الزراعى المشغول بالدعوة عن طريق نصوص لا يفهمها:

أولا: لاحظ أن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لم يجلس للدرس إلا بعد الأربعين!!

وثانيا: هلا ذهبت إلى والدك الفلاح.. هناك فى الحقل فقلت له: يقول تعالى: ﴿كمثل جنة بربوة﴾ بمرتفع من الأرض:

لماذا آتت أكلها مرتين؟ هل لأنها فى علو.. فالجذور ضاربة تمتص غذاء أكثر..

أم هل لأن الوابل نازل من أعلى.. فهو يغسل الأوراق؟

وهل لغسيل الأوراق صلة بالثمر كمًّا وكيفا؟

وهل ينوب «الطل» عن الوابل الصيب لو لم يسقط؟

وإذ تنص آيات القرآن الكريم على ألوان من الفاكهة بعد اندراجها فى العام قبلها: مثل [جنة من نخيل وأعناب].. فيها فاكهة ونخل ورمان.. هل لهذه الفواكة فوائد خاصة بمعنى أن تخصيصها بالذكر تحريض على بحثها وتحليلها وصولا إلى هذه الفوائد؟

أما بعد: فقد قلت للمهندس الزراعى.. لا تلمنى فيما وجهتك إليه وابدأ من جديد فليس بداعية من يغضب قائلا: ماذا عملت حتى يصيبنى من غضب الشيخ رذاذ.

ولكن الداعية هو الذى يطور السؤال ليكون: ماذا علىّ أن أعمل من الآن لأستأنف الرحلة من جديد! .. كن فى موقعك كهذا المخترع الكبير والذى فكّ كل مافى الدار من آلات.. ثم أعاد تركيبها من جديد... وعليك أن تعيد تركيب الدنيا.. تقرأ.. وتفهم.. وتحلل ثم تقدم شيئا جديدا.

*****

تقرأ وتفهم وتحلل ثم تقدم شيئا جديدا

ضرورة الحذر

يقولون: إن إذابة الجليد تحتاج إلى ماهو أكثر من حرارة العواطف!

ويعنى ذلك: أن حرارة عواطفنا وأمنياتنا ـ كما قيل ـ لا تكفى وحدها لكى يذوب الجليد المتراكم.. ولابد مع العواطف من ذكاء يقف به العقل إلى جانب القلب.. ليتمكن بالحيلة من الوصول إلى تحقيق رغائبنا.. وما أحوج الدعاة إلى الحيلة كوسيلة إلى احتواء المدعو..هؤلاء الدعاة الذين يتحرقون شوقا إلى هداية الآخرين.. لكن هؤلاء الآخرين أذكياء.. لا تُجدى معهم المواجهة المباشرة ولا الحماس المتدفق ولابدَّ من الحيلة..

يقول ابن الجوزى:

[من أراد غلبة الذكى.. دقق النظر وتلطف فى الاحتيال.. فمتى وقع الإنسان مع ذكى فينبغى أن يتحرز منه.. ويسرق أغراضه بصنوف الاحتيال وينظر فيما يجوز وقوعه.. فليحذر منه.

وكثير من الأذكياء لم يقدروا على أغراضهم من ذكى فأعطوه وبالغوا فى إكرامه لِيَصيدُوه.. فإن كان قليل الفطنة وقع فى الشرك.

وإن كان أقوى منهم ذكاء.. علم أن تحت هذه النية خبيثا فزاده ذلك احترازا.

وأقوى ما يكون الاحترازَ من مَوْتُور: فإنك إذا آذيت شخصا. فقد غرست فى قلبه عداوة. فلا تأمنْ تفريعَ تلك الشجرة. ولاتلتفت إلى ما يظهر من وُدّ وإنْ حَلَف فإنْ قاربته فكن منه على حذر.

ومتى رأيت عدوك فيه غفلةٌ لا يثنيه مثلُ هذا.. فأحسن إليه:

فإنه ينسى عداوتك.. ولا يظنُّ أنك أضمرت له جزاءً على قبح فِعْله فحينئذ تقدر على بلوغ غرض منه..

ومن الْخور إظهار العداوة للعدو .. ومن أحسن التدبير : التلطف بالأعداء إلى أن يُمكن كسر شوكتهم.. وإن لم يمْكن ذاك كان اللطف سببا فى كف أكفهم عن الأذى.. وفيهم من يستحيى لحسن فعلك فيتغير قلبه لك].

ومن سنته ﷺ التى نذكُرها.. ثم نذكِّر بها: أنه كان يكثر من مجالسته ـ عقبة ابن أبى معيط ﷺ.

ولقد استغل فيه ﷺ: حياءه .. وكرمه.. فمع شدة عداوته للإسلام والمسلمين.. إلا أن بصيصا من الحياء والكرم.. كان هو الخيط الذى أمسك به الرسول ﷺ فقاد منه الرجل الأبىَّ العصى:

فقد كان من عادة عقبة أنه كلما عاد من سفر أن يُعد وليمة... وعاد ذات يوم من سفر فدعا الرسول إلى وليمته.. فاشترط ﷺ أن يُسلم.. فغلبه الحياء.. فأسلم.. فقبل الرسول دعوته..

وإذا كان أبىٌّ بن خلف عاتب عقبة على إسلامه المفاجئ.. وضغَطَ عليه حتى تحلل منه.. إلا أن أثر الحيلة فى زحزحة الحجر الصلد ظل باقيا.. شاهدا على أن الحماس وحده لا يكفى..

وتبقى للحيلة مساحة من الاهتمام لما لها من أثر فعال.. حمل بعض السلف على أنهم إذا بلغهم أن رجلا قد شتمهم أهدَوْا إليه وأعطوه: [فهم بالعاجل يكفون شره ويحتالون فى تقليب قلبه.. ويقع لهم مُهُلة لتدبير الحيل عليه إن أرادوا. وكفى بالذهن الناظر إلى العواقب.. والتأمل لكل ممكن.. كفى به مؤدبا] أ هـ.

إنها الحيلة إذن ـ أحيانا على الأقل ـ بديلا عن الحماس.

ذكروا أنه فى بعض بلاد المسلمين.. ذهب المرشد الدينى وقد دُعِىَ إلى حفل خطابى فى قرية من القرى..

وركب تلاميذه أمواجا كالجبال من الحماس.. رجّتْ أصداؤه محطة القطار..

لكن الداعية الكبير علم بطريقته الخاصة أن الحفل المزمع إقامتهُ.. سيتم بدون علم عمدة القرية .. وعلى رغمه!

وعلى الفور.. برزت الحكمة.. حكمة الشيوخ... التى لم يستهوها الهتاف العالى ... فنزل من القطار.. خُفية.. ومن الجانب الآخر.. وعَبْر حقول الذرة.. انسرب مع خاصته.. والجماهير الصاخبة لاتدرى بما صنع..

متطلعة إلى القطار الذى وافى.. ثم قصد المرشد بيت العمدة.. ليبلغه أن حفلا فى القرية لن يتم إلا بموافقة الرجل الأول فى القرية!!

وبهت العمدة الذى وجد نفسه أمام حكمة الرجولة وبساطتها.. وتواضعها.

لقد كانت حرارة العواطف هناك على محطة القطار تشحن الجو..

أما فى دار العمدة فكانت الحيلة.. كان التلطف... وذُهل العمدة الغاضب من كلمات الداعية.

وخرج العمدة من داره.. برفقة الشيخ إلى السرادق.. والتقى الجمعان هناك.. صفا واحدا.. بعدما ذاع السر وشاع.. بعدما ذاب جليد الشتاء.. لا بحرارة العواطف. ولكن بالحيلة.. واحترام أقدار الناس.

ومازلت أذكر ذلك الفتى المتحمس.. والذى قابلته فى بلد من بلاد الإسلام..

فإذا رأيت ثمَّ رأيت شابا مخلصا.. طيب القلب.. ولكن ما أشد ما أتْعَبَ هذا القلب بالحماس الذى يأكل الأخضر من خلاياه.. وفى غير ميدان:

إنه غاضب.. عاتب على أوضاع المسلمين فى العالم.. قلت له:

هوّن عليك وجفف دمعك الغالى.. وحاول أن تمد يدك إلى شيوخك.. فى محاولة للوحدة يتيح للأمة الإفادة من قوة شبابها.. ومعرفة شيبها..

وما أحوج المسلمين اليوم.. وكلَّ يوم.. إلى شبابها وشيوخها:

كل فى موقعه.. وعلى قدر استطاعته.. وفى تخصصه يصب فى محيط الأمة التى ترد إليها الجميل.. ورفعاً لراية الدين الذى أكرمنا الله تعالى به.

إن اللسان المبسوط بالغيبة.. يتحرك فى فم كأنه فوهة المدفع.. هذا اللسان يَنْقُد.. لكنه لا يُنقذْ!.. يَهدم ولا يبنى..

وأنفع منه للمسلمين ذلك الفتى الجالس على أريكته.. تحت الشجرة هادئا.. هانئا.. بما يحصل من علم:

وكما قيل: لايدع حاشية.. إلا حشاها فى رأسه.. ولا تعليقا إلا علقه فى ذاكرته..

ولقد شغله علمه عن الغيبة.. غيبة العلماء:

إن الصالحين لا يغتابون أحدا. .بل ولا يسمحون أن يُغتاب عندهم أحدا.

وإن الأمل الأكبر فى قلب أحدهم هو: دعوةٌ مستجابة من شيخ صالح وقور.. وإنها كما قال أحدهم:

أجدى علىّ من مائة مقالة فى رثائى:

لأن الدعاء لى.. أما الرِّثاء.. فلقائله.. وليس للميت منه شيء!!

وكمثل الغيبة: السخرية ممن له قدم صدق فى خدمة الإسلام.. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾.

لقد وصفهم بالإجرام مع أن فعلهم كان مجرد السخرية!!

وبدل الغيبة.. والسخرية.. يكون الاحترام.. ثم الوئام.. سبيلا إلى بداية طيبة.. تصفو معها الحياة..

إن الذين تجمعهم لا إله إلا الله أقدر على الصفاء.. ممن لايعرفونها.

وإذا كان من الممكن أن يتحول المشرك إذا آمن.. إلى أخ فى الله بعدما غسل بالإيمان شركه.. فما ظنك بالمؤمن العاصى؟

إن الله تعالى يقول: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن..﴾، ويقول سبحانه: ﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ [البقرة: ٢٢١].

ويعنى ذلك: إمكان التعايش ... ونسيان ماضى المشرك الأسود وإذن.. فلماذا التجافى ظانين استحالةِ عودة المياه إلى مجاريا.. بين المسلمين .. مع أنها قد عادت بالفعل مع مشرك.. ومشركة كانا بالأمس نجسين.. ثم صارا بالإيمان خلقا آخر.

وقد يكون الفتى بلا صبوة فيتعجب الله تعالى منه كرما وفضلا.. ولكن هناك فرق بين: الأفضل والأعجب..

لقد كان الصحابة السابقون الأولون أفضل.. وإن لم يكونوا أعجب .. ونقرأ فى ذلك ماروواه أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه -[(١)]:

---

(١) تفسير ابن كثير: ج ٣٠٩/٤.

أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم». . قلنا: من هم يارسول الله. . قريش؟؟

قال: «لا.. ولكن: أهل اليمن لأنهم أرق أفئدة وألين قلوبا». .

ـ وأشار بيده إلى اليمن ـ فقال: «هم أهل اليمن.. ألا إن الإيمان والحكمة يمانية».

فقلنا يارسول الله: هم خير منا؟ قال:

«والذى نفسى بيده، لو كان لأحدهم جبل من ذهب يُنفقه ما أدى مد أحدكم ولا نصيفه»..

وسيظل الأعجب محتاجا إلى الأفضل دائما.. يغترف من علمه.. ويتأدب بأدبه.. استنباطا للفائدة..وتوضيحا لما غمض.. وتقريبا لما غرب. واستخراجا لما ندَّ عنهم..

وإذا كان «الصلا» هو مغرز ذيل الفرس.. فإن العالم الخبير هو الفرس المجلّى..

وإن الجيل الجديد هو المصلّى.. سيظل المجلى سابقا.. فى المقدمة.. ورأس اللاحق من ورائه عند صلاه!

وقد نستوفى... وقد نقارب..

وحاشانا ألا نستوفى. ولا نقارب.

*****

من خصائص الداعية

قال صاحبى: أرأيت إلى رئيس دولة أجنبية ـ بعد انتهاء مدة رئاسته ـ يعود إلى المصنع القديم.. مجرد عامل.. بسيط كما كان.. أمام الآلة الدوارة؟!

قلت له: حفظت شيئا وغابت عنك أشياء:

حفظت شيئا من مواقف الأجانب... ولا بأس أن تأسرنا المواقف الجادة..

ولكن غاب عنك أن أبا بكر ـ رضى الله تعالى عنه ـ عندما ولى الخلافة بكى بعض الناس.. أسفا لأنه لن يتمكن من حلب منائحهم لهم بعد اليوم!!

وقرر الخليفة المسؤول ألا تمنعه مسؤولية الخلافة عن مباشرة خدماته.. وأن يظل فى بؤرة الشعور.. لا يغيب.. ومن ثم عاد ليمارس نشاطه القديم.. فكان يحلُب للناس منائحهم ! على قدر استطاعته طبعا.

ولنبدأ قصة الداعية الثانى ـ أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ لنرى كيف استجمع الصدِّيق خصائص الداعية المثالى. علما كاشفا.. وحركة اجتماعية عملية تجىء تطبيقا لهذا العلم..

ومن وراء ذلك كله: أخلاق مثالية تستمدُّ رواءها وبقاءها من صاحب الخلق العظيمﷺمما يفرض علينا حسن التأسى به. قبل أن نقف موقف الدعاة:

يقول ابن إسحاق[1]: كان أبو بكر مألفا [والمألف: الموضع الذى يألفه الإنسان... أى أنه كان: لين الجانب.. مُوَطأ الأكناف.. ثم كان: محبًّا.. سهلا.. طلق المحيا.. يتناول الأمر بيسر وسهولة..

وكان خلقه هذا: معروفا بين قومه الذين كانوا يألفونه لمزايا تَفرَّد بها: لعلمه.. وتجارته.. وحسن مجالسته..

وقد كان أعلم قريش بالأنساب.. وبما كان فى قريش من خير أو شر كان أنسب العرب: ومن ثم فهو يعرف أحوال المدعويين الاجتماعية .. يعلم أحوال العرب.. وبطونها.. وتاريخ كل قبيلة.. وأخلاقها.. كالشجاعة.. والبخل.. والأمانة..

---

(١) السيرة: ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

قالوا: ولعل هذا واحد من أسرار إقدامه فى حروب الردة وإحجام عمر مع شدته. . فقد كان له من علمه دراية بطبائع القوم. . فلم يخف. .

وقبل هذا كان قرآنيَّ النظرة. . حين تَمَلَّى مافى القرآن الكريم من عبر التاريخ التى يجب أن يلم بها الداعى ليعرف كيف ينشأ الفساد. . . وماهى العادات المتحكمة. . ومن ثم يكون الدواء ناجعا بإذن الله تعالى.

وهو درس للدعاة حتى لا يحرثوا فى البحر. . إن المعصية التى تراها. . ليست وليدة الساعة. . ولابدّ من خطوات إلى الوراء. . لابد من: استقراء الواقع. . ودراسة المجتمع بكل خيوطه المتشابكة. .

لقد كان إيمان أبى بكر يرجح إيمان الأمة. .

وعلى جلالة الإيمان وفعاليته. . لكنه لن يواجه وحده الإعصار. . فليس بالإيمان مجردا. . تحل المشكلات.

ولكن بثمراته: بالوعى المستنير. . والفكر الصائب. . والتدْبير الحكيم. . وذلكم هو العلم. . الذى يدرك. . يُدرك طبيعة المرحلة. . وطبيعة السلاح الذى تقتضيه المعركة. . ويفرضه التحدى. .

فإذا أضاف الداعية إلى علمه. . عمل يده. . حقق بذلك كفايته . . ومعها عزته. . ثم فاض من خيره على مَنْ حوله. .

وهكذا كان الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ: لقد كان عالما. ثم استدعى علمه عمله. . فاستجاب. . فكان الداعية المثالى. بعلمه. . ثم بثمرته وهو العمل. .

فإذا أضفت إلى ذلك حسن مجالسته. . تمت صورة الداعية فى ذهنك كمالا:

لقد بدأ يدعو إلى الله ـ فى حياته ﷺ ـ ولم يكن يبدأ إلا بمن يثق به من ذوى النُّهى فى قومه. . فأسلم على يديه الكثير وفى طليعتهم عثمان ـ رضى الله عنه. .

فإذا راعك هذا التوفيق فى دعوته ورحُت تتساءل عن السبب. . وجدت العلم. . وخدمة الناس على رأس هذه الأسباب.

ويعنى ذلك أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ لم يكن فقط يأمر بالمعروف. .

وإنما كان: يصنع هذا المعروف صنعا!

فكان هذا النجاح آية على إخلاصه.. الذى اقتعد به مكانا عليا..

لقد كان - رضى الله عنه - من أضعف قريش نسبا.. كما قال أبو سفيان حين صار أبو بكر خليفة: [مابال هذا الأمر فى أذل حىٍّ فى قريش].

ولكنه بالخلق القويم.. والحركة الدائبة ساد قومه:

تعيرنـــــا أنـــا قليـــل عديدنـــا فقلت لـه إن الكـــــرام قليل

وماضـــرنّا أنا قليل وجـــارنا عـــزيز.. وجـار الأكثرين ذليل

وإذا كان شرف النسب مُهمًّا.. فأهم منه: طهارة القلـــب من الدنس.

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكـــــل رداء يرتديه جـــميل

إنه إذا.. الجانب العملى فى حياة الداعية.. والذى يجعله فى وعى مجتمعه دائما: يكشف كُربة المسلم .. أو يدخل عليه سرورا.. أو يمشى معه فى حاجته..

ولأن إيمان أبى بكر - رضى الله عنه - كان يرجح إيمان أمته.. فقد كان طبعيا أن يكون عطاء هذا الإيمان وفيرا.. وأن يكون بسيرته وسريرته تفسيرا عمليا لقوله ﷺ فيما رواه ابن عباس - رضى الله عنه:

إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: يارسول الله: أى الناس أحب إليك؟ قال: **«أنفعهم للناس،وإن من أحب الأعمال إلى الله تعالى: سروراً تدخله على مسلم،أو تكشف عنه كربة.. أو تسدّ عنه جوعا، ولأن أمشى مع أخ لى فى حاجة أحب إلى من أن أعتكف شهرين فى المسجد».**

وفى ضوء هذا الحديث الشريف كانت رؤية الصالحين الكاشفة عن أهمية الأخلاق النظرية والعملية فى حياة الدعاة فقال بعضهم:

[الأخلاق الصالحة: ثمرة العقول الراجحة...فمن لقى الناس بالإحسان... وعاملهم بالأخلاق الحسان..فهو الذى يخف عليهم جانبه وتُحمد أنحاؤه ومذاهبه.

ولن يعدم منهم حسن الثناء.. ومن الله جزيل الجزاء:

إذا حويت خصال الخير أجـــمعَها فضلا وعاملت كـــل الناس بالحسن

لم تعدم الخير من ذى العرش تحرزه والشكر من خلقه: فى السر والعلن

ولقد سار على طريق أبى بكر - رضى الله عنه - شباب.. لم تكن قصارهم أن يأمروا.. وينهوا.

وإنما كانت لهم خطتهم العملية فى مجال الخدمة العامة.. فكانوا عونا للضعيف.. وغوثا للّهيف.

ومنهم ذلك الفتى الذى قدّم لتلك الأعرابية العجوز خدمة.. فدعت له قائلة:

أذل الله كل عدو لك.. إلا نفسك...وجعل نعمته هدية لك.. لاعارية مستردة...وأعاذك من بَطَر الغنى. وذل الفقر وفرّغك لما خلقت له...ولا شغلك بما تكفل به لك].

فانظر كيف تواصلت الأجيال.. فكان الجيل الجديد فى خدمة الجيل القديم من الأشياخ والزّمنى..

فاتخذت الدعوة فيه مظهرها العملى الجاد: فضاقت المسافة بين جيلين يبادلان الود.. ويتهاديان الوفاء.. وكان هذا الدعاء من العجوز.

وأروع مافيه.. وأروح لنفس المسلم خاتمة هذا الدعاء:

[وفرّغك لما خلقت له.. ولا شغلك بما تكفل به لك]

وأحرى بالشباب أن يستمعوا إلى جدتهم العجوز - فيتفرغوا لما يحسنون من عمل عن طريق بذل طاقة كلفوا بحسن استغلالها...ثم يصونون هذه الطاقة حتى لا تذهب بددا فى غير ميدان.. إن الله تعالى قد أراد منا.. ثم أراد لنا..

فلنعمل ما أراده تعالى منا.. ثم نُسلم راضين بما أراده سبحانه لنا.. وعندئذ يكون القرار.. وتكون عقبى الدار...والحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات.

*****

التاجر الداعية

تمهيد:

من توجيهات شيخنا محمد الغزالى ـ عليه رحمة الله ـ مالفت نظرى إليه فى لقاء بمكة المكرمة:

ينبغى للدعوة أن تأخذ سبيلها العملى.. حركة مباركة بين الجماهير الذين نعينهم على أمر الله بخدمتهم عن طريق: بناء مدرسة.. أو مستشفى أو ملجأ للأيتام.. فذلك أجدى من هذا العراك الدائم بيننا وبين الحكام والذى ينتهى حتما بخسارة الفريقين.. هذه الخسارة التى تدفع الأمة فى النهاية حسابها..

وقد رأيت من الوفاء له.. أن أعود إلى تاريخنا.. لأقع منه على ما كان لأسلافنا من مواقف عملية.. عبَّرت فيه الدعوة عن نفسها بخدمات سَدَّ الدعاة بها ذرائع الفتنة.. بقدر مافتحوا للخير أبوابا.. وهيؤوا أسبابا.

وليكن ذلك تحية له.. أجدى من حفل تأبين أشترك فيه:

إن المديح والإطراء.. لا ينفع الموتى.. وإنما ينفعهم أن يظل عطاؤهم فى أعمالنا موصولا.. عطاء نجدد به شباب أمة فى حاجة إلى «طاقة» شبابها و«معرفة» شيوخها.

سألنى طالب العلم عن رجل يريد بناء مسجد.. حوله أربعة مساجد.. كلها على بعد أمتار منه.. وفى القرية معهد دينى تحت التأسيس.. لا يجد من يتمه.. فى الوقت الذى يذهب أطفال القرية إلى معاهد القرى المجاورة؟!

قلت له: ذكرتنى الطعن.. وقد كنت ناسيا..ذكرتنى ما قاله شيخى.. زمان: لا تسل عن المنفق: كم أنفق.. ولكن قل: لماذا أنفق؟!

إن الأعمال الضخمة. لاتحدد قيمة العمل. بقدر ماتحدده النوايا فى الصدور!

هذه النوايا التى تقف من ورائها عقول ذكية.. تدرس احتياجات البيئة.. وتتلمس مواطن العلة.. ثم تضع المعونة فى مكانها الصحيح.. ليجىء العلاج جذريا.. يستهدف تغيير النفوس من الداخل.. وقديما قالوا:[غيرٍ الأنفس.. يتغير التاريخ].

وعلى هذا المستوى من الوعى كان المسلمون.. وفى مقدمتهم التجار.. الذين نشروا الإسلام فى فجاج الأرض فكانوا هداة.. وكانوا أساة وفى ذلك عبرة.. للمصلحين.. والدعاة:

كان «حسان بن سنان» تاجرا..

ويبدو أنه لم تكن به حاجة أو رغبة فى التجارة.. ولكن حبه للمساكين فرض عليه ذلك.. فقال: لولا المساكين.. ما تاجرت!!

نقول: كان «يحب» المساكين.. ولم يكن فقط «يشفق» عليهم..

إنها إذن عاطفة الحب.. وما يترتب عليها من تقدير.. لا شعور الإشفاق.

وما ينشئه فى قلب المسكين من إحساس مرّ المذاق.

وعلى هذا الأساس بدأت شركته التجارية المباركة تمارس عملها.. آخذة فى حسابها.. حق الفقراء فيها..

هذا الحق المكفون شرعا.. إلى الحد الذى يكفر جاحده!

النوايا.. على محك الختبار.

لم تكن نوايا «حسان» حبراً على ورق.. وهاهى ذى تثبت وجودها.. بل وجوده هو:

جاءته امرأته تسأله معونة:

وعندئذ بدأت مهمته:

لم تكن مهمته فقط أن يرد السائل بلقمة أو لقمتين.. ولم يكن قصاراه أن تتحدث الصحف عن أريحيته!

وصحيح أنه كريم.. جواد.. كأخيه «يزيد بن المهلب»: إنْ كانت السفن لتجرى فى بحر جوده؟!

وكان يملك يدا: كأنما هى سحابة المزن.. تزجيها الرياح إلى الأرض الميتة.. فتنهمر مطرا.. ينبت من كل زوج بهيج..

لكن كانت له بصيرة نافذة: تضع الدرهم فى مكانه الصحيح طبق منهجه

فى تغيير النفوس.. ليتغير العالم من حولنا.

لقد رأى المرأة: يكاد ثوبها أن ينتقض من كثرة ما صُبغ فقرر:

أولا: تعجيل المعونة..

وثانياً: أن تكون مجزية.

ومن ثم أشار لشريكه بأصبعيه: السبابة والوسطى.. فأعطاها شريكه على قدر همته.. درهمين!!

فما كان من حسان إلا أن أشار إليه:

أقول لك: زن لها مائتين.. لا درهمين!!

*****

ولك أن تتصور بعد المسافة بين الشريكين.. بين الرأيين: بين الدرهمين.. والمائتين!

ومع ذلك فهو الخلاف الذى لا يفسد للود قضية.. قال له صاحبه وهو يحاوره:

يا أبا عبد الله: ـ هكذا يناديه .. بأحب الأسماء إليه :

يا أبا عبد الله: لقد كانت المرأة ترضى بالدرهمين.. والفقراء غيرها كثيرا!

إنها وجهة نظر الشريك: على طريق التجارة .. أو طريق الدعوة: يقدمها إليه فى إطار من الود. .ثم يقدمها مشفوعة بدليلها. .الدعاة.. والنظرة من أعلى

وما كان جواب «حسان» إلا أن قال: إنى ذهبت فى شىء لم تذهبوا فيه:

إنى رأيت بها بقية من الشباب.. وخشيت أن تحملها الحاجة إلى بعض ما يُكره؟!

فانظر كيف تجاوز التاجر الداعية اللحظة الراهنة.. ليستوعب مضاعفات المستقبل.. مستقبل امرأة فيها بقية من شباب.. ومسحة من جمال..

ومن ثم قرر المعونة التى يغلق بها بابا من الفتنة.. وليحميها من قبضة ذئاب بشرية.. قد تستغل حاجتها..

وهاهو ذا بالمعونة: العاجلة.. الحكيمة.. يحرر إرادة المرأة من ربقة عبودية تتهدد حياتها.. وشرفها.

إن المجتمعات اليوم لتضج بآلات اللهو.. وأسباب العبث.. فهل نقضى على هذا اللهو.. وهذا العبث بتكسيرها؟

أبدا. .إن العلاج.. يبدو اليوم فى منطق تاجر صدوق.. وداعية حكيم:

إن العلاج: يَبْدَأ من الداخل.. بتسخير الثروة لتكون وقاية من الانحراف. .حتى لا يقع ابتداء. .وإلا. .فلو خلت الديار من الغناء والأوتار..

ثم بقيت النفوس الطاهرة تحت رحمة الذئاب.. فلا خلاص.. ولات حين مناص!

ونعود على بدء لنقول: حتى يستقبل المسجد عبادا فاقهين.. لابد أن يتم ذلك عن طريق المؤسسة التعليمة سبيلا إلى الفقه فى الدين!

إنها «زكاة» تطهير وتزكية: تزكية النفس بالعلم.. وبالأخلاق.. تزكية يصير بها الإنسان جزءا من منظومة الكون.. الذى يعطى.. ولا يبخل: يقول المناوى ـ رحمه الله ـ فى فتح القدير:

[اعلم بأن الوجود كله متعبد لله بالزكاة:

انظروا إلى الأرض التى هى أقرب الأشياء إليك: تجدها تعطى أقرب الخلق إليها وهم من على ظهرها.. جميع بركاتها.. لا تبخل عليهم بشىء مما عندها.

وكذلك النبات: يعطى ماعنده وكذا الحيوان.. والسماء... والأفلاك: الكل متعاون بعضه لبعض.. لايدخر شيئا مما عنده فى طاعة الله؛ لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض: قد لزمه الفقر وشملته الحاجة فعطف بعضه على بعض وأعطى ماعنده وهو زكاته]..

وقد فهم التاجر الحكيم الدرس.. على يد الطبيعة من حوله وأحيانا يكون لسان الحال.. أبلغ من لسان المقال.

لقد كان «حسان» ذلك التاجر الزكى.. الذكى:

فهو بزكاء نفسه ـ بالزاى ـ ينفق.. ولا يخشى من ذى العرش إقلالا.

ثم هو ـ بذكاء عقله ـ بالذال ـ يدرك أن ماله لن تنقصه الصدقة.. بل تزيده أضعافاه.. ألا وإن تجارب الحياة لتؤكد هذه الحقيقة: حقيقة النماء بالسخاء..

قال المأمون لمحمد بن عباد: أردت أن أوليك ولكن منعنى إسرافك؟!

فقال محمد: مَنْعُ الجود، سوء ظن بالمعبود.

فقال المأمون: لو شئت أبقيت على نفسك: فإن ما تنفقه ما أبعد رجوعه إليك. فقال محمد بن عباد: من كان له مولى غنى.. فلن يفتقر.

وعندئذ أحس المأمون بخطئه ثم قال لرجاله: من أراد أن يكرمني.. فليكرم ضيفي محمداً!!

فجاءته الأموال.. فأنفقها..

فقال له المأمون: كم دَينك يامحمد؟ فقال: ستون ألفا.. فأعطاه مائة ألف فأنفقها!!

أجل أنفقها.. فمنع بالإنفاق جرائم كان يمكن أن تدفع إليها الحاجة..

وهو على يقين بأن الإنفاق سبيل الغنى!!

ومازلت أذكر صديقي التاجر.. الذكي:

لقد كان يقدم لي فنجان القهوة تحية القدوم.. ثم يعرض بعد ذلك عليّ بضاعته.. وبسيف الحياء كان لابد أن أشترى.. وهكذا يفعل الأذكياء:

لقد دفع ثمن فنجان القهوة.. درهما.. لكنه ربح من ورائي... عشرات!!

أما بعد: فهذا درس عملي من دروس الدعوة .. لا يكتفي فيه الداعي.. بالدعوة إلى المعروف.. وإنما هو يصنعه صنعا!

إن في ذلك لعبرة لشباب مخلص.. لكنه يخطئ الطريق إلى الهدف حين يجعل من الدعوة كلاما ممضوغا.. ولفظا معسولا.. ومراء لا يغني عن الحق شيئا..

وهو النموذج الذى يخاطبه ابن المقفع في الدرة اليتيمة قائلا: [لا تكثرن ادعاء العلم. في كل ما يعرض لك: فإنك من ذلك بين فضيحتين:

إما أن ينازعوك فيما ادعيت فيهجم منك على الجهالة والكبر.

وإما ألا ينازعوك وتصبح الأمور في يدك فينكشف منك التصنع والعجز.

لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك: العدل.. وفيما بينك وبين صديقك: الرضا.. وذلك أن العدو خصم تضربه بالحجة.. وتغلبه بالحكام.. أما صديقك.. فليس بينك وبينه قاض.. وإنما: حكمه ورضاه].

ونقول نحن: وعلى الأغنياء من الدعاة أن يوجهوا الثروة إلى البناء.. إنقاذا للأمة..

وهكذا يفعل المتنافسون اليوم.. حين يتخذون من الاقتصاد سلاحا فى معركة البقاء: وعندما يواجه «الين» اليابانى.. الدولار الأمريكى وبالعكس وأيضا كما فعل أمير المؤمنين عثمان عندما سخر ثروته.. للبناء.. لا للهدم.. للتعمير.. لا للتدمير!

حسان رمز الحرية:

ويبقى« «حسان بن سنان» رمزا من رموز الحرية: حرية الإرادة الإنسانية.. ليبدو الفقير كما خلقه ربه تعالى «فى أحسن تقويم» ثم سيبقى علامة على طريق الدعوة.. التى يتمثلها داعية ربما.. ما كان يتلو من كتاب.. ولا يخطه بيمينه.. بيد أنه كان شامل النظرة عميقها:

لقد كان هناك سؤال يلح عليه: إلى من أتقدم بإحسانى؟

هناك شحاذون.. طوافون... معروفون بالاسم.. يعطيهم الأغنياء فقط تخلصا من صفاقتهم.. وهناك متعففون.. لا يسألون.. وإذا سألوا لا يلحفون: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾.

فقراء: لا تنحصر فرحتهم فى العطاء: أنهم أخذوا.. وإنما غبطتهم الكبرى - كما قيل بحق - أنهم يصبحون غدا من المنفقين.. وتلك هى متعتهم الكبرى!

جوهر الدعوة:

إنها الدعوة التى تفتح إلى المعروف أبوابا.. بقدر ما تحبط للشر أسبابا..

وما أكثر الدعاة فى عالمنا.. ولكن قلّ فيهم العاملون: وما كل قول، قيل: علم وحكمة. وما كل أفراد الحديد حسام.

إنهم العاملون الذين يطلون على الناس.. فإذا هم ذلك الربيع القادم:

تحبه للحسن فيه.. ونَهش عند لقائه.. وعندما يغيب عنك تشتهيه. إنه الكريم ينفح كالورد.. بالشذى ودائما.

*****

الإسلام وتحرير إرادة الأمة

نظر الرسول ﷺ في وجوه أصحابه يوما ثم قال:

«من يحفر بئر «رومة» فله الجنة». فجرفها عثمان. وقال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة». فجهزه عثمان][1] .

تمهيد:

المحسنون فى الدنيا كثير . . وصور الإحسان تعطر الجوّ من حولنا . .

ولكى يتم الإحسان عمليا . . لابد أن يكون الإنفاق من طيبات كسبنا . . وذلك قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ذلك بأن الله تعالى ـ كما يقول المفسرون: لايقبل إلا الطيب:

لأن قابل الردىء إما أن يقبله لحاجته . . وهو تعالى غير محتاج . . وإما لأن نفسه غير شريفة ولا كريمة . . والله سبحانه هو الكريم وهو: الغنى الحميد . .

ولكن . . من معانى «الطيب» هنا . . أن يكون السخاء محققا ثمرته فى إسعاد الأمة كلها . .

وإذا كان مهما أن يكون المبذول طيبا فى ذاته . . فمثله فى الأهمية أن يكون محققا ثمراته . .

فإذا كانت هذه الثمرة هى: تحرير إرادة الأمة الإسلامية من مستغليها إذن . . فما أطيب المال . . وما أعز الرجال!!

وفى طليعة هؤلاء الرجال: عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ: فكان رجل الأمة فى السلم . . والحرب على سواء:

فى الحرب: جهز جيش العسرة:

(١) البخارى ـ باب مناقب عثمان بن عفان.

وفى السلم.. اشترى بئر «رومة» ثم وهبهُ للمسلمين.

لم تكن همة عثمان ـ رضى الله عنه ـ لترضى بالصدقة يبذلها.. لقمة للفقير..

وإنما كان واحدا من الذين يؤرقهم همُّ الأمة الأكبر وهو: تحرير إرادتها من قبضة غاصبيها..

ولقد مضى على طريق سلفه عمر ـ رضى الله عنه ـ والذى قال: [أعطوا.. وأغنوا...].

بمعنى: إعطاء الفقير.. ما يخرج به من دائرة الفقر.. حتى يصل على الأقل إلى المرتبة الأولى من الغنى..

وكذلك .. فيما يتعلق بحاجة الأمة..وهو ما يشير إليه الحديث الشريف..

لكن ماقصة هذا البئر.. «بئر رومة».

[المرافق فى يد الأجنبى]:

لم يكن بالمدينة سوى بئر «رومة».

وكان يملكه يهودى كانز استغل حاجة الناس إلى الماء.. فغالى فى الثمن.. مدركا أهمية قطرة الماء فى هجير الصحراء..وقاصدا فى نفس الوقت امتصاص عافية الأمة رويدا.. ليبقى اليهود على الساحة وحدهم..

لقد كان منطقيا فى نظر نفسه.. لو أنه كان جنديا فى جيش يهودى يواجه عسكريين مثله فى معركة حياة أو موت.

أما « ضرب المدنيين». أما التحكم فى رقاب الودعاء فتلك هى الطبيعة اليهودية الآثمة والتى كان يتمثلها صاحب البئر:

هذه الطبيعة التى قالوا عنها..إنها طبيعة مصنوعة.. طفيلية.. لا تعيش إلا على حياة من حولها فإذا كان مِنْ حولها مسلما.. فتلك غاية المراد من رب العباد! وعلى الأقل: تنفيسا عن حقد قديم مكتوم مقيم.. تغذيه عقدة الشعب المختار التى كان من إفرازها ماحكاه القرآن الكريم: ﴿**ليس علينا فى الأميين سبيل**﴾.

ولقد تمثل صاحب البئر تلك الطبيعة.. حتى ضج الناس.. ثم جأروا بالشكوى إلى رسول الله ﷺ.. فكان هذا الحديث الشريف:

لقد نقل الشاكُون نبض الشعب المؤمن إلى القيادة العليا.. فهرعت القيادة لتتحمل مسئولياتها إزاء الغاصبين .. المتاجرين بأقوات الشعب..

فماذا فعل ﷺ؟

لقد كان فى ذهنه ﷺ مانعبّر عنه بلغة العصر:

ضرورة تحرير المرافق العامة.. من اليد الأجنبية! التى يجب الضرب عليها بعد أن شكا المسلمون من ارتفاع «فاتورة المياه»!!

لابد من تحرير الإرادة الإسلامية .. والصوت الانتخابى.. من هذه «الشركة» الأجنبيه.. ممثلة فى هذا اليهودى المحتكر!

ولكن.. كيف؟

إن تحرير اقتصاد البلاد لا يتم بقرارات فوقية!

وإنما هو عرض القضية.. وتحديد حجم المشكلة.. أمام أهل الحل والعقد.. تحريضا للقادرين على المسارعة فى الخيرات..

وصحيح أن التكليف باهظ.. وفى معاناته عذاب.. بيد أنه لا يخلو من عذوبة تخليص الأمة من قبضة غاصبيها!

وناهيك بها من غاية يسعى لتحقيقها أولو النهى من الشرفاء...

وهاهى ذى الأمة تستجيب طائعة.. فى شخص عثمان - رضي الله عنه -: عثمان: رجل الحرب.. ورجل السلم:

لقد جهز جيش العسرة.. فى ساعة العسرة حتى لم يفقد الجيش خطاما.. ولا عقالا...

وها هوذا فى السلم يتقدم لينهض بحل إسلامى للمشكلة.

لم يكن الحل الإسلامى هنا كلاما منمقا مزوقا.. وإنما كان نجدة تأخذ مشكلها العملى..

قمة ثنائية:

وفى قمة ثنائية.. اجتمع عثمان ـ رضى الله عنه ـ مع اليهودى صاحب مرفق المياه الأسير!

ولم يكن المفاوض الإسلامى.. يملك المال وحده..

لقد كان يملك الذكاء.. ويملك الدهاء أيضا!!

وبالذكاء.. والدهاء.. والسخاء.. كسب قضية الإسلام!

كيف؟

لقد اتفق مع صاحب البئر على أن يشترى نصفه.. ووافق اليهودى.. وكانت المفاجأة..

لقد كان لعثمان فى البئر يوم.. ولليهودى يوم!

فلما أعلن عثمان عن أيامه ليستقى الصحابة فيها.. مجانا.. أسقط فى يد اليهودى الذى وقع فى الشرك المنصوب:

فقد تحرى الصحابة أيام عثمان.. فاستسقوا فيها ما يكفيهم.. وبقيت أيام اليهودى.. فلم يقصد البئر أحد!!

وفرضت الإرادة الإسلامية ممثلة فى عثمان رضى الله عنه.. حين استسلم اليهودى.. وعرض على عثمان شراء نصفه.. فابتاعه.. ثم وهبه صدقة على المسلمين.

المسلمين: الذين يسعدون بالماء يشربونه.. قدر سعادتهم بتحرر إرادة الأمة من غاصبيها.. وانتهى الموقف.. لكن صورة عثمان ـ رضى الله عنه ـ ظلت تملأ وعى الأمة بمعنى القيادة الراشدة كما يجب أن تكون:

إنها القيادة التى تحتل مكانتها فى القلوب: حين تكون أول من يضحى.. وآخر من يستمتع!!

*****

الدعوة بين الدعابة والحيلة

شكا بعض أهل الأمصار والياً إلى المأمون. فكذبهم وقال:

قد صح عندى عدله فيكم وإحسانه إليكم. فاستحيوا أن يردوا عليه فقام شيخ منهم وقال: يا أمير المؤمنين: قد عدل فينا خمسة أعوام فاجعله فى مصر غير مصرنا، حتى يسع عدله جميع رعيتك وتربح الدعاء الحسن!

فضحك المأمون واستحيا منهم. ثم صرف الوالى عنهم.

من أسباب سعادة الأمة أن يكون فيها دعاة ينصحون.. ثم حكام يحبون الناصحين.

فإذا استجمعت الأمة هذين العنصرين فقد استجمعت فى نفس الوقت عناصر قوتها وازدهارها.. ثم استمرارها..

فإذا وُجد الداعية الواعى.. الذى يرسل موعظته من عمق التعرّف .. ثم إلى حسن التصرف.. التعرف على اتجاهات المدعو وظروفه.. ووضعه فى الأمة.. ثم حسن التعامل معه على أساس من هذه المعرفة..

إذا وجد هذا الداعية... فإن نعمة الله تتم كمالا وجمالا.. بهذا الحاكم الذى يفتح صدره للنقد.. بل قد يجعل من النقد الهادف هدية من قبل داعية ينقذه بالنقد من ألسنة أعدائه.. بقدر ما يتصدى للمديح والإطراء وما يصنعه من غشاوات تحجب العيون فلا ترى الحق.

وذلك هو الحاكم الذى ارتضع من الإيمان لبنا خالصا.. فعرف قدر نفسه.. ولم يفتنه المنصب.. ولم يستخفه المديح.

ومثاله: عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ:

فقد دخل عليه «جرير» بقصيدة يهنئه فيها بالخلافه قال له: اتق الله ياجرير ولاتقل إلاحقا.

ولما قال له رجل: طاعتكم مفروضة. قال له: كذبت.. لا طاعة لنا

عليكم إلا فى طاعة الله تعالى ! فبهت الذى مدح!!

وعلى قدر إخلاص الدعاة.. وحكمة الولاة.. يكون موقع الأمة على خريطة العالم. الأمة التى تتعدد الآراء فيها كسبا للمواقف لا غراما بالعواطف

وفى هذا الموقف الذى صدّرنا به الحديث.. إشارات إلى ضرورة هذا التجاوب بين عنصرى الأمة.. على نحو يوضح أساس التّعامل بين الحاكم والمحكوم.. حتى لا يكون ظالم ولا مظلوم.

فماذا فى الموقف من دروس؟ وبلُغةِ العصر الذى نعيش فيه؟

[المحافظ يخل بواجبات وظيفته]

والقضية هنا هى: شكوى مقدمة إلى الحاكم ضد المحافظ الذى أخل بواجبات وظيفته..

وإذا كان للمحافظ الطاعة.. فإن للرعية حق النقد ضمانا لمسيرة الخير التى يجب أن تبلغ أجلها.. وليس هناك ـ باسم الإسلام ـ رجل فوق النقد..

وإذا كان هناك من هو أولى بالنقد أو النصح فهو المحافظ نفسه.. بحكم مسؤوليته وما يترتب على قراراته من آثار لا ينجو منها أحد فى منطقة نفوذه.

[دستورية تشكيل الوفد والأسلوب الحضارى...]

لم تكن هناك مظاهرات صاخبة أو شاحبة.. وإنما هو التعبير السلمى عن آمال المحافظة.. من خلال وفد يمثلها.. على نحو دستورى.. بدا فى تكوينه من عنصرى الأمة:

الشباب.. والشيوخ.

وتبدو دفقة الحماس.. حين اندفع الشباب إلى الشكوى أولا:

ولكن بهذا الأسلوب الحضارى الذى يطلب.. وفى هدوء الواثق بعدالة قضيته.. يطلب مساءلة المحافظ الذى تجاوز حدود اختصاصه.

يطلب التحقيق فى القضية المعروضة بلا مهاترات.. ولا تدافع بالمناكب..

تماما كما تفعل خلايا النمل:

إنها توفر طاقاتها وأوقاتها.. فتصطفى من بينها جماعة لتستكشف لها أنسب المواقع لبناء سكن لها..

وهكذا فعل أبناء المحافظة الذين دل اختيارهم على رجاحة عقولهم.. حين عبر الوفد المختار فعلا عن حكمتهم ورغبتهم فى الإصلاح: فهذا الوفد الشبابى.. لم يكن ليحاول إصلاح المحافظ.. عن طريق خطة لا تحقق أمله.. وإلا.. ففساد الخطة.. يوسع خرق الفساد فلا يجد الراقع قدرة على إصلاحه:

لقد أدى مهمته بنجاح:

أولا: عرّف المدعو بمواقع الخلل.

وثانيا: نصح بسرعة الإصلاح..

ثم لم يتجاوز إلى المرحلة الثالثة والتى لا يملكها وهى: العنف .. لتحقيق الأمل بالقوة!

إن غاية الشباب هنا شريفة.. فلتكن الوسيلة على مستوى الغاية شرفا ونبلا.. وهكذا علّمنا هؤلاء الشباب!

الحاكم لم يستوعب الموقف:

لم يستوعب المأمون دقائق الموقف... لأنه لم يستوعب حينئذ حقائق التاريخ!

ومن هذه الحقائق:

أن سقوط الحضارة كما قالوا ـ فى بعض أسبابه راجع إلى:

أ ـ الانشقاق فى كيان المجتمع.. حين ينشق هذا الكيان على نفسه بتأثير عدم التوافق بين السلطة الحاكمة والشعب المحكوم.

ب ـ حين تحوى الحضارة جسما غريبا فى داخلها يسبب باستمرار ضغط عليها من داخلها.. كما أطاح العبيد بالامبراطورية الرومانية.

ولقد جاءه هؤلاء الشباب.. وقلوبهم كالمراجل.. تغلى.. مما رأت.. وسمعت عن السيد المحافظ!

وإذا كانوا يقولون: إن الأدب يُذهب عن العاقل طيشا..بينما يزيد الأحمق طيشا.كضوء النهار.. يزيد البصير بصرا.. ويزيد الخفاش سوء النظر - فقد جاء وفد الشباب إلى باب الحاكم.. بعقل متفتح.. ومجرد مجيئهم ظاهرة صحية تستوجب التقدير.. لا التكدير.. ولكن الذى حدث هو العكس!:

الحاكم ينحاز للمحافظ:

لم يكتف المأمون بالدفاع عن رجله.. وإنما واجه الوفد بتهمة الكذب!

فنسف بهذا التكذيب كل جسور التفاهم!

ولم يجد الشباب إلا الاعتصام بالحياء. من أمير المؤمنين.

ولقد رسب المأمون فيما نجح فيه الفلاح البسيط فى قريتى:

لقد جاءه جاره يشكو إليه عدوان ابنه.. على ولده الذى يبكى بين يديه!

وهبّ الفلاح.. فألقى القبض على ولده.. وبدون تحقيق.. فأوسعه ضربا.. وتعنيفا.. امتص به فورة الغضب من الوالد الشاكى.

والذى هب بنفسه لينقذ غريم ولده من يدى أبيه!!

وهكذا .. نجح الفلاح فى إنقاذ الموقف.. بل فى عودة المياه إلى مجاريها.. حين عاد الرفاق إلى الوفاق كما كانوا.. بل أحسن مما كانوا!

لكن المأمون زاد النار اشتعالا بانحيازه لرجله.. والذى تحُوم حوله شبهات.. ينبهه إليها من رأى.. ومن سمع..

فلما بهتهم.. ارتد الأمل إلى داخلهم حسيرا.. ليتحول إلى بذرة من حب الانتقام سوف تنبت يوما.. لتصبح واقعا أليما.. فات أوان تلافيه.

من آصار التّحدى:

يقولون : إن رجلا يقصد معرض لوحات ليشترى لوحة أعجبت كل

الناس.. فذلك تحدٍّ لهم باقتنائه لها... وليس فنانا..

لكن البسيط الذى ذهب إلى المعرض.. وفى جيبه بضعة قروش ليشترى لوحة أعجبته هو شخصيا.. فذلكم هو الفنان!

ولقد كان منطق المأمون منطق التحدى لآمال نفر من أمته جاء وفى محاولة للتعاون معه على البر والتقوى.. بإقصاء مسؤول هو حرب على قيم البر والتقوى..

ولكنه صمم فى تحد يضربه نفسه على أن يبقى المحافظ... تابعا أمينا..

وإذا بدت صورة رجله قائمة فى نظر الآخرين.. فلتبق كالزجاجة: تلمع إذا وضعت على فصٍّ من الذهب.. على كرسى الإدارة..

وهكذا الأتباع والأشياع!

[فشل محاولة فرض الرأى الواحد]

لقد انقطع الحوار.. وفى الدقيقة الأولى بين الحاكم والشباب... ومتى انقطع الخيْط؟

عندما حاول المأمون فرض الرأى الواحد على مايشير إليه قوله تعالى: **﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾.**

إن محاولة فرض الرأى الواحد.. هولون من تغطية العجز الداخلى .. والفشل فى مواصلة الحوار.. من قبل جانب يطوح بنفسه بعيدا عن ساحته بتجاهل وجهة النظر الأخرى.

لكى يستمر الحوار:

قد ينطق أحد المتجادلين من اعتزازه بنفسه .. واستهانته بخصمه وربما كان حب الشهرة من وراء منطق هذا المجادل الذى ينطلق لا يلوى على شيء فى محاولة لتأكيد ذاته .. ولو على أنقاض خصمه الشريف! ثم تكون النتيجة الطبيعية: توقف الحوار..

وقد يظن هذا المجادل المحترف أنه كسب القضية لأنه أسكت خصمه

بالضربة القاضية!

ولكن علماء الفن ـ فن الحوار ـ ومنهم ابن عقيل ـ يقطعون عليه الطريق .. حين يضعونه فى قفص الاتهام ليواجه بما يلزمه كلمة التقوى .

كسب العواطف، لا كسب المواقف:

إنهم يقولون له: ليس الحوار مناهبة .. وإنما هو مناوبة :

مناوبه يتبادل الخصوم الرأى .. كما يتبادلون الاحترام ..

وليس هو نهبا للأقوى .. أو الأعلى صوتا .. أو منصبا ..

ثم يقولون له : هل تريد كسب المواقف .. أم كسب العواطف؟

يمكن .. ومن منصبك العالى .. وجمهورك المفتون بك إن تحقق نصرا وقتيا تكسب به موقفا ..

بل ربما كنت تملك الحجة التى تحتل بها عقل خصمك .. ولكن :

ولكنك لاتستطيع كسب قلبه .. وحبه .. قد تفرض عليه احترامك أو هيبتك ـ ولكنك لن تفرض عليه أن يحبك!

وإذن .. فسوف تخسر القضية حين فشلت فى كسب إذعان خصمك وتسليمه لك راضيا فإذا كان لهذا الخصم أشياع وأتباع.. فقد استكثرت الأعداء..والبلاء .. معا .

لقد اتسعت صدور أسلافنا لمختلف الآراء .. فأتاحوا للمسلمين التحرك فى دائرة وسيعة من سماحة الإسلام .

ولكن يظل الحوار موصولا موفور العطاء. كانوا يتحاشون فرض الرأى الواحد.. مؤثرين الرأى الميسر تجاوبا مع يسر الإسلام وخاصة فى مواجهة العوام .

ومن ذلك ماروى أن أبا جعفر المنصور قال للإمام مالك لما أراد تصنيف الموطأ:

تجنّب شدائد ابن عمر . ورخص ابن عباس وشواذ ابن مسعود . . وبهذا الفكر المتفتح . . المرتبط أساسا بروح الإسلام . . بدأ الإسلام للناس طلق المحيا . . فائض البشر . . فازداد المؤمنون إيمانا . . ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

الديمقراطية لاتتجزأ:

وصحيح أن الحاكم فتح لهم أبوابه . . ثم أعارهم سمعه فأنصت إلى شكواهم، وتلك حسنة نشكر الله تعالى والذى أجراها على يديه . . لكن الديمقراطية كل لايتجزأ . . وكان عليه أن يمضى على سننها إلى نهاية الشوط فيحقق فيما ذكروا من وقائع قد يكون بعضها صحيحا . . والعقل الرشيد قاض بالتضحية أحيانا بمسؤول متهم أحيانا . . على الأقل . . كسبا لرضاء الملايين الذين قد يسكتهم الحياء أحيانا . . ولكن القلوب لها حساب آخر . . فلا يرضيها إلا الحلول العملية . . وليس القول المعسول !!

مثل من التاريخ:

كان الوليد بن عقبة شقيق عثمان ـ رضى الله عنه ـ لأمه.

ولما كان أهل الكوفة حينئذ أهل شقاق. قرر الخليفة تعيين أخيه الوليد واليا عليها. فكان فى ولايته حازما حاسما إلى الحد الذى أغضب أهلها. فلما شكوه إلى أخيه أمير المؤمنين عثمان ـ رضى الله عنه لم يتردد فى محاكمته محاكمة عادلة انتهت بعزله . . بل والتنكيل به !!

الشيوخ ينقذون الموقف:

وكاد الحق ليضيع . . بين تجنّى الخليفة . . وحياء الشباب . .

لولا حكمة الشيوخ . . وحصافة التجربة . . وسرعة البديهة . . والتى أنقذت الموقف بهذه الدعابة على لسان الشيخ . . والذى وافق الخليفة على عدل المحافظ . . ونزاهته ولكن وبحكم شريعة العدل . . طالب بنقله إلى محافظة أخرى ليجنى الآخرون ثمرة عدله! ويكون لك فى الأمة ذكر بقدر ما وطد المحافظ المحظوظ من قواعد العدل هنا . . وهناك !

وهكذا أنقذت الدعابة الموقف .. حين ضحك المأمون .. وقرر نقل المحافظ .. بعد ما فشل الشباب .. وبعد مافشل الحاكم نفسه .. فى حل المشكلة ..

ويبرز الدرس البليغ هنا :

ما أحوج أمتنا إلى الخبرة .. إلى التجربة .. لتقف إلى جوار الحاكم ناصحا أمينا

ولتقود الشباب المخلص المتحمس .. إلى التى هى أقوم ..

إن غياب الأشياخ عن الساحة خسارة كبرى .. لأنها تترك المجال :

إما للحماس المندفع .. أو الإفراط فى الثقة .. بأهل الثقة .. وأين هى الدعابة المحكومة بأدب الإسلام اليوم ..

أين الوجه الضاحك. والذى يستمد طلاقته من قلب مشرق .. مقبل على الحياة قادر على التكيف معها بنجاح . أين الظرفاء .. الأدباء ..

المهم ..وليس الظرف أن تقول مايضحك ..

وإنما الظرف هو:

أن تستظرف الآخرين .. الذين يقومون وهم راضون عن أنفسهم .. وراضون عنك طبعا !!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

*****

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

سيرة ذاتية

د. محمود محمد محمد عمارة

- من مواليد «سلامون» مركز الشهداء. منوفية عام ١٩٢٩.
- حاصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٦.
- حاصل تخصص التدريس من كلية اللغة العربية عام ١٩٥٧.
- عين مدرسا فى نفس العام بمعهد أسيوط الدينى ـ ثم معهد دسوق ـ معهد منوف ـ ثم أعير للجامعة الإسلامية بليبيا من سنة١٩٦٢ـ١٩٦٦م وعاد إلى معهد بنى مزاز ثم معهد فتيات المعادى ثم منوف.
- حصل على الماجستير فى الدعوة ١٩٧٠.
- حصل على الدكتوراه فى الدعوة ١٩٧٥
- عمل مدرسا بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة وأستاذا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- كان عضوا باللجنة المركزية وناقش الرئيس الراحل أنور السادات ـ أثناء اشتراكه فى وضع دستور مصر ـ فى ضرورة أن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ووافق على اقتراحه.
- يكتب فى الصحف والمجلات منذ أن كان طالبا بالثانوى.
- اشترك فى بعض المؤتمرات الإسلامية خارج مصر.

كتب المؤلف

كتب مطبوعة

١ ـ تربية الأولاد فى الإسلام.
٢ ـ نوح عليه السلام.
٣ ـ نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية.
٤ ـ صفحات من تاريخ المرأة المسلمة.
٥ ـ اليهود فى الكتب المقدسة.
٦ـ الخطابة فى موكب الدعوة.
٧ ـ شبابنا بين العلم الناقص والعلم الجامد.
٨ ـ عزة المؤمن.
٩ ـ من فقه عمر.
١٠ ـ تأملات فى السيرة.
١١ ـ من الذى يغير المنكر وكيف.
١٢ ـ فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام.
١٣ـ مؤمن آل فرعون. . . ودروس فى الدعوة.
١٤ ـ نحو مجتمع بلا مشكلات.
١٥ـ نحو أسرة بلا مشكلات.
١٦ ـ أصول الدعوة من قصة إبراهيم عليه السلام.
١٧ ـ الحج بين الدوافع والمنافع.
١٨ ـ الهجرة والإعداد للمستقبل.
١٩ ـ سائح فى رياض القرآن.
٢٠ ـ من فقه الصيام.

كتب تحت الطبع

١ ـ الدعـــوة بين كيد الطغاة وحكمة الدعاء.
٢ ـ ثمرات من حدائق السنة.
٣ ـ فى رحاب السنة.
٤ ـ الإعلام الإسلامى فى مواجهة الإعلام المادى.
٥ ـ تقدمة التلاوة.
٦ ـ حماية العرض فى الإسلام.
٧ ـ تأملات فى غزوة تبوك.
٨ ـ فواتح فى أدب الصحبة.
٩ ـ من مجالس العلم.
١٠ ـ دروس تصلح بها النفوس من الدين والحياة.